قصتي..

مع الحركة الإسلامية

أ.د. حسن مكي محمد أحمد



إصدارات
هيئة الأعمال الفكرية

بسم الله الرحمن الرحيم

هيئة الأعمال الفكرية

قصتي مع الحركة الإسلامية

أ.د / حسن مكي محمد أحمد

فهرسة المكتبة الوطنية - السودان

218.72/ حسن مكي محمد أحمد

ح ٠ق

قصتي مع الحركة الإسلامية/حسن مكي محمد أحمد .-ط1- الخرطوم : هيئة الأعمال الفكرية 2006م

114 ص : 24 سم

ردمك : 3-25-59-99942

1.الإسلام - حركات الإحياء والإصلاح والتجديد -السودان.

2.حسن مكي محمد أحمد - السيرة الذاتية.

3. السودان - تاريخ - العصر الحديث - جعفر محمد التميري.

أ. العنوان.

اسم الكتاب : قصتي مع الحركة الإسلامية

المؤلف: حسن مكي محمد أحمد

الناشر: هيئة الأعمال الفكرية

سنة النشر: الطبعة الأولى 2006م

رقم الإيداع: 2006/ 671

الرقم الدولي : ردمك : 3-25-59-99942

الطابعون: شركة مطابع السودان للعملة المحدودة

عنوان الناشر: الخرطوم- العمارات ش 35

تلفون :571437 - 0183- **فاكس** 571438 - 0183

ص.ب: 12001 - الرمز البريدي :11111

الموقع على الإنترنت: www.fikria.org

المحتويات

فاتحة الكتاب:

على غير ترتيب مني سعى الناشر لجمع هذه الحلقات التي نشرت تحت عنوان (قصتي مع الحركة الإسلامية) في مجلة الملتقى على عهد الصحفي الراحل المعطاء (المرحوم عبد المنعم قطبي) لإصدارها في كتيب. علماً بأنني لا أدعي بأن لهذه القصة قيمة زائدة غير خصوصيتها، ولكن مع ذلك فإن كل كاتب يطمح في نشر ما يسوّد، وإن كانت لهذه الكلمات من قيمة فإنها تستمدها من الحقبة التي تُحدِّث عنها، حقبة ما قبل الإنقاذ، حيث مثّلت الحركة الإسلامية، أو ما ظللنا نسميه بالمشروع الإسلامي، مفهوم الوطن، الذي عاش في أبعاده المعنوية الكثيرون، وما يزال البعض يحلم به.

وأرجو أن ينظر القراء - وعلى الأخص الشباب - إلى هذا الكتيب في إطار التراث العام للحركة الإسلامية. ولعل تجارب الكثيرين ممن هم في صفوف هذه الحركة، أو كانوا على صلة بها، أثرى وأرشد في حيويتها ودلالتها، وأكمل في مغزاها، ولكنها مع ذلك تظل حبيسة الصدور ربما لعقدة الكتمان والسرية، أو ربما لم تتوفر الظروف الموضوعية لبسطها ونشرها. كما أن أمة السودان على العموم أمة أمية، لا يهتم أهل الكتابة فيها بالتدوين والتحليل.

ومن المؤكد أن دروس حقبة الإنقاذ، والتجارب التي صاحبت السنوات التي حكم فيها الإسلاميون كانت لها آثار بعيدة المدى في تشكيل شخصية الكاتب وعقله ورؤيته للأشياء. وما عادت الأمور بالنسبة له عوالم مفارقة (أبيض وأسود، وخير وشر)، ولكن تداخلت الأشياء وتقاطعت الدوائر حيث أصبحت تشكّل مساحات المنزلة بين المنزلتين كما يقول المعتزلة.

وكما يتساءل الكثيرون أين الحركة الإسلامية؟ وأين المنتمين إليها؟ وما هي المتغيرات التي نزلت بها؟

ولعلّ ذات الأسئلة تموج في نفس الكاتب حتى ما عاد يعرف هل ما يزال في صف المنتمين؟ وهل يصلح للتحدث باسمها، وما الذي تغير؟ المرحلة، أم الكاتب، أم الحركة؟.

ليس من الميسور في هذه الفاتحة الإجابة على أسئلة مستقبل الحركة الإسلامية، وأين أخطأت وأين أصابت، لأن هذا خارج إطار هذه الذكريات.

وما أرجوه أن تسهم هذه الكلمات، في إشاعة الوعي والتعريف بهموم نفر من جيل الحركة في الثلث الأخير من خواتيم القرن الماضي، كما أرجو أن تسهم هذه الكلمات في بناء العقلية

التحليلية النقدية، القائمة على الموضوعية، والمبنية على حقائق الواقع المر، وليس فقط على العواطف والأشواق، ولا حتى على المصالح، ولا كذلك على الإسقاطات والإحباطات، لأن القائمين على المشروع الإسلامي ليسوا من سكان المريخ أو من كوكب آخر، بل من هذا البلد الذي يسمى السودان. كذلك فإن الرؤية لأي مشروع تظل محفوفة بنسبية العمر، ونسبية الإنسان، حيث لا يستطيع الإنسان مهما أوتي من القدرات أن يحكم بموضوعية، لذلك لا يستطيع تجاوز آفاق الغيب وحدود الزمان، ليظل على وضعية هذا المشروع في إطار حركة تاريخ السودان ومستقبله، وحركة النهضة الإسلامية التي تتهيأ لدورة جديدة. وإن كان هناك ثمة درس أو عبرة فهي أن نتمسك بالحرية والشورى والمؤسسية، ومتابعة البناء العلمي والفقهي في إطار مطلوبات التزكية والتربية.

والسلام..

حسن مكي محمد أحمد

الحركة الإسلامية تجربة ذاتية:

أطلّ عليّ صديقي دكتور عوض حاج علي نائب مدير جامعة الشرق بدون مقدمات قائلاً: هل صحيح أن هناك صراع أجيال في الحركة الإسلامية؟ حينها كنت مشغول البال، كما كان همي منصرفاً إلى أشياء أخرى، وقد فهم عوض بذكائه اللماح ذلك فانصرف إلى موضوع آخر.. ولكن ظل سؤاله يحرك من خبايا النفس وشعابها حتى سألت نفسي:

- إلى أي جيل في الحركة الإسلامية أنتمي؟

ولعلي اصطلاحاً يمكن أن أصنف نفسي ضمن جيل الرواد، لأن الجيل اصطلاحاً أربعين سنة، إذ أن الله سبحانه وتعالى قد حكم في كتابه بالتيه والحرمان على بني إسرائيل أربعين سنة في الصحراء. فقال المفسرون إن الأربعين سنة هي الحد الأدنى لانقراض جيل وظهور جيل آخر.

الحركة الإسلامية في السودان ما تزال في كنف من بقايا جيلها الأول، حيث ظهرت في النصف الثاني من الأربعينيات على يد رعيل متفاوت في السن والخبرة، علي طالب الله، وعوض عمر، ويابكر كرار، ومحمد يوسف، وصادق عبد الله، والترابي، ومحمد صالح عمر، وانتهاءً بجيل الإنقاذ، جيل أبي دجانة (جيل الشهادة والشهداء).

إن جاز أن نكون اصطلاحاً في دائرة جيل الرواد، إلا أننا بالخبرات والتجربة والتطلعات، وكذلك بمقاييس الصحبة النفسية ننتمي إلى حقب تاريخية متميزة، وبهذا الاعتبار فإننا ننتمي إلى الجيل الثالث في الحركة الإسلامية، إذ يمكن أن ندخل في جيل الرواد كل من عرف الحركة الإسلامية قبل استقلال السودان، ويمكن أن نضع في الجيل الثاني كل من انتمى إلى الحركة الإسلامية بعد الاستقلال، جيل عبد الرحيم حمدي، ومحجوب عبيد، وربيع حسن أحمد، وحافظ الشيخ، وإبراهيم أحمد عمر. أما الجيل الثالث فهو جيل ما بعد أكتوبر ٦٤ والذي تشكّل في ظروف تحول الحركة الإسلامية من مجرد حركة جماعة صفوية ضاغطة، إلى حركة سياسية جامعة في ظروف انفتاح وحريات. وقد أكرم الله د. الترابي في أن يكون على رأس هذه المرحلة، وأن يرتبط اسمه بالحركة الإسلامية في جميع مراحلها إلى يومنا هذا. ويرد جيلنا في هذا السياق كالجيل الثالث، ولعل بداية هذا الجيل تبدأ بحاج نور، وقطبي المهدي، وعلي عثمان محمد طه، الذين يتداخل جيلهم مع جيلنا (أحمد عثمان مكي، والشهيد عبد الإله خوجلي، وجار النبي، والحافظ جمعة سهل) وكتاب الحركة الإسلامية

يتسع للكثيرين، فهناك الجنود المجهولون الذين اسهموا من مواقع خاصة لا تحتمل الأضواء، ولعل أنبل وأصدق العمل ما انعقد على الإخلاص والبعد عن مواقع الشهرة. وكان أجر صاحبه على الله بعيداً عن ظروف العمل العام والشهرة وما يحيط به من رياء ونفاق وسمعة.

أما صاحبك الفقير لله، الذي هو نتاج لظروف العمل الإسلامي في مرحلة ما بعد أكتوبر، فقد كنت كغيري من شباب السودان في منتصف الستينيات. نشأت في الحصاحيصا، وكانت في ذاك الوقت مدينة بلا طعم ولا رائحة، في وسطها يسكن أهلها الأصليون في الحي الأوسط، ويسمون بالدباسيين، ولعلهم فرع من فروع البطاحين أو الكواهلة، وتحيط بهم في كريمة منازل الشماليين من شايقية وبديرية وغيرهم. بينما يحيط بها في الكمبو، سياج من العمال الوافدين في محالج القطن. وكانت تبرز في الحصاحيصا حينها التشوهات والأمراض الاجتماعية، فهذا حي الدعارة تتعارض الصفوف حول منازله صباح مساء، وهذه الخمارات الرسمية التي يديرها الأغاريق، وهذه الخمارات الشعبية التي تديرها الساقطات براياتها وعلاماتها، ووسط هذه التشوهات كان يشمخ مسجد الحصاحيصا الوحيد ومعهدها العلمي.

ومع أن أهل الحصاحيصا تعايشوا حيناً من الدهر مع كل هذه المعاصي والتشوهات. إلا أن عزائهم كان في الحصاحيصا (الريف)، حيث تتناثر خلوات القرآن والمسايد في ود الفادني وأربجي والقرشي وود الزين...الخ.

وحتى لا أنصرف إلى التاريخ الاجتماعي للحصاحيصا، يحسن أن أذكر أنني نشأت في هذا الجو، وكان لوالدي متجراً في سوق الحصاحيصا، وكان هذا المتجر لصيق لمكتبة الشعلة - المكتبة الوحيدة في الحصاحيصا حينها - وكنت أوزع وقتي بين الدراسة في مدرسة الحصاحيصا المتوسطة، ثم القراءة في مكتبة الشعلة (مجلة سمير وميكي وكذلك أرسين لوبين وروايات الجيب والمجلات المصرية)، وفي المساء السباحة في النيل الأزرق والسينما وتشجيع فريق الهلال والاستماع لصوت العرب، أو السمر مع الأصدقاء تحت ضوء القمر ومن غير قمر.

وحينما أطلت نذر أكتوبر، وعمت البلاد المظاهرات، شاركنا ضمن المشاركة العامة لجماهير الحصاحيصا وطلابها في المظاهرات، التي لم ندرك مغزاها إلا بعد حل المجلس

العسكري العالي، ثم ظهور الأحزاب السياسية، وما صاحب ذلك من عمل سياسي ومنبري.

مما لم يمح من ذاكرتي في هذه الفترة طغيان المد اليساري عالمياً وإقليمياً ومحليا. لقد هبط قاقرين على القمر وكان ذلك أشبه بالزلزال الفكري والنفسي، حيث أخذ دعاة التقدمية يروجون لفكرة النظرية المادية، وأن الإنسان في طريقه ليصبح سيد نفسه. وبدأ النظام السياسي السوفيتي والفكر السياسي الشيوعي أقوى بكثير من الغرب، وما يمثله التحديث الغربي. والدولة الغربية نفسها وعلى رأسها الولايات المتحدة شعرت بخطر زحف الحركة السياسية الأممية وانتشار الفكر الشيوعي، وقد عرفت تلك الفترة بحقبة الحرب الباردة، والتي اشتد فيها الصراع إعلامياً واقتصادياً وفكرياً ونفسياً وعسكرياً بين المعسكرين. وإن كانت كفة الميزان تميل في اتجاه الاتحاد السوفيتي بالرغم من أنه أضعف تقنياً وعسكرياً وصناعياً، ولكن الآلة السياسية والإعلامية للشيوعية استطاعت أن تتفوق وتعوض هذا الضعف، وتظهر الشيوعية كالبديل السياسي والاجتماعي المتاح لتخليص الإنسانية.

وفي هذا الظرف كان الروس يعملون في بناء السد العالي بمصر، وأصبحنا نحن شباب المرحلة المتوسطة نعرف شيئاً عن النظرية المادية والصراع الطبقي وخورتشوف وقاقارين، بينما لم يكن الغرب يعني لنا شيئاً سوى فيلم يوم الخميس سواء كان (كاوبوي)، أو برت لانكستر. أو مارلين مونرو. وأذكر ذات يوم جاءنا في البيت المرحوم أحمد المصطفى حسين والد الأخ الحالي (بكداش) ويبدو أنه كان مسئولاً عن خلايا الحزب الشيوعي السوداني بالحصاحيصا. وأخذني وأخي الأكبر إبراهيم بعربته إلى الفضاء الواقع خلف سوق الحصاحيصا الحالي. وأخذ يحدثنا عن الحزب الشيوعي وطرحه، وكان يحاول إلحاقنا بأحد الخلايا. ولكنه فوجئ بمعارضتنا الشديدة للفكر الشيوعي وبنائه الإلحادي. وفي ذلك اليوم اكتشفت أنه لا يمكن أن أكون شيوعياً، وبالفعل فقد عاود المرحوم أحمد المصطفى الاتصال ولكن دون جدوى. والمرحوم أحمد المصطفى من أنبل شباب الحصاحيصا وأعمدتها، وانتهى إلى محطة التدين. وكان من أوائل من نبذوا الشيوعية ومن دون ضوضاء.

أما الأمر الآخر والذي كان أكثر تأثيراً، وقوعي على مقال للكاتب المصري أحمد بهاء الدين، يستعرض فيه كتاب (معالم في الطريق) للشهيد سيد قطب، ومع أن الكاتب كان يحاول أن يرسم من خلال الاستعراض صورة مشوهة للحركة الإسلامية ولفكر الأستاذ سيد قطب، ويثير بعض البلبلة حول مفاهيم وعبارات سيد قطب مثل عبارة (الحاكمية لله) متسائلاً ما معنى الحاكمية لله (وهل يقصد أن يتنزل له من ملكوته ليباشر مهام الحكم والسلطة؟) كما خصص المصور

بقية صفحاته للحديث عن الحركة الإرهابية التي كان الشهيد سيد قطب يعدها لمهاجمة النظام المصري، حيث ورد في التحقيق صور المطاوي والمسدسات المغلفة في شكل مصاحف وغيرها.

استهواني فكر الشهيد سيد قطب، وشعرت بأنني مشدود لهذا الرجل، علماً بأنه كان يتعرض لحملة تشويه وتشهير كبيرة، استعداداً لإصدار حكم الإعدام عليه، وإعدام مفكر ليس بالأمر السهل مهما كانت قوة النظام السياسي.

طلبت من أخي عمر مكي الذي كان حينها طالباً بمدرسة ود مدني الثانوية العليا أن يسعى لمدي بكتاب (معالم في الطريق)، وبالفعل فقد استلف لي الكتاب وأخذت في قراءته، ومع أنني لم أكمل الكتاب إلا أنني كدت أحفظ مقدمته، لقد استهواني أسلوب الشهيد وفكره، ومن ذلك اليوم اكتشفت أنني لا أصلح غير أن أكون جزءاً من هذه المدرسة. وبينما أنا مستغرق في اكتشاف مغزى الوعي بمفاهيم دراسة (معالم في الطريق) أخذت الحصاحيصا تستعد لاستقبال ليلة سياسية باسم جبهة الميثاق الإسلامي يتحدث فيها د. الترابي وآخرون، وبالفعل فقد انسحبت من المذاكرة في ذلك اليوم لميدان مسجد الحصاحيصا المطل على منزل الشيخ الوداعة، وهناك استمعت للأخ زين العابدين الركابي الذي حدثنا عن تجاربه مع الأمن المصري، كما أعطى نماذج عن التعذيب وسوء المعاملة والامتهان الذي يلقاه الأخوان من نظام عبد الناصر، ثم أعقبه عبد الله حسن أحمد. والذي تحدث عن الإسلام في السودان والثورة المهدية، محاولاً ربط الحركة الإسلامية الحديثة بحركة الإسلام السودانية، ببعدها التاريخي ودلالاتها الخاصة. ثم أعقبه د. الترابي متحدثاً عن مغزى التدين وصراع الجاهلية والإسلام، وركز على محاولات أبي الأنبياء إبراهيم في البحث عن هدف التاريخ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى كشف لإبراهيم ملكوت السماوات والأرض، حيث بدأت الرحلة الإبراهيمية مع النجوم، وانتهت إلى الله الواحد. ثم عرج إلى الصراع السياسي في السودان، وكيف أن هذا الصراع صراع فارغ همه الاستحواذ على الكراسي ولا يستند إلى فكر، ولا يحمل معه رؤية ولا برنامج. وقد استمعت بكل حواسي لما ورد وقيل في المنبر. ووسط الجموع اكتشفت أن عدداً من أفراد أسرتي - وعلى رأسهم الوالد - من بين الحاضرين، علماً بأن الوالد لم تكن له أي اهتمامات سياسية، وحصر همه في شؤون الأسرة والعناية بها، ولكنه كان يعطي صوته في

الانتخابات للاتحاديين لأسباب تتصل بتكييفه البيئي كشمالي من (قنتي)، وكذلك لأن كثيراً من اهل الشمال لهم موقف من المهدية والأنصار، حيث أن تجربة هذا القطاع من أهل الشمال لم تك موفقة مع الثورة المهدية.

المهم رجعت من الليلة السياسية وقد تشبعت بالأفكار التي قيلت في الليلة السياسية. واكتشفت بأنني أصبحت (أخاً مسلماً). ولكن ذلك لم يعنِ شيئاً كثيراً، إذ كنت مشغولاً بامتحانات العبور من المرحلة المتوسطة. وبعد الامتحانات رأيت فيما يرى النائم أنني أعبر نهر النيل على قارب، وأوّلتها أنني سأقبل في حنتوب الثانوية وقد كان.

وفي حنتوب لم يحتاج الأخ حسام الدين ساتي لأكثر من دقيقة ليضمني إلى مجموعة الأخوان المسلمين، وكنا حينها حوالي الستين من أصل قرابة الثمانمائة طالب، ومن حنتوب ومكتبة موسى أبو زيد بمدني ومكتبة مضوي تلقينا بوادر فكرنا، وتعرفنا على ظلال القرآن والعدالة الاجتماعية، ومما لا ينسى الدور الرائد الذي قامت به جامعة أم درمان الإسلامية التي استقطبت صفوة من علماء المسلمين، كمحمد المبارك، ومحمد أبو زهرة، وبنت الشاطئ. ومصطفى الزرقا، كما اجتهدت الجامعة في الاستفادة من هؤلاء الأساتذة في الندوات والمحاضرات والليالي.

وفي حنتوب فهمت ماذا يعني أدب الحركة الإسلامية في التنظيم، من أسرة إلى شعبة وكتيبة، وتعلمنا كيف نتنازل عن جزء يسير ٥٪ من مصروفاتنا الشهرية لمصلحة الحركة. وبدلاً من تخصيص ليلة الجمعة للسينما والترفيه أصبح المساء الممتد ما بين عصر الخميس وصباح الجمعة للذكر والتهجد وتلاوة القرآن. تعلّمنا صلاة التسابيح والتجويد، وصوم الاثنين والخميس، وكان أهم ما تعلمناه العمل الميداني ضد التيارات الهدامة والحركة السياسية المعاكسة. تعلمنا أصول العمل الجماعي، وكيف نتحرك كفريق، وكيف نصدر الجرائد الحائطية، ونقيم المعارض والمهرجانات، وتعلمنا أصول الطاعة للأمير، وتعلمنا أن توزيع المنشور عبادة مثله مثل الصلاة، وأن المشاركة في المسيرات والمظاهرات عبادة مثلها مثل الصوم والزكاة، وتعلمنا كيف ننازل الشيوعيين في ميادينهم، ونجتذب منهم الطلاب بواسطة الفن والتصدي المباشر.

لقد أصبحنا نضرب الأرض بقوة، ونجد للحياة معنى وطعماً، لقد أصبحت لنا رسالة وكنا من قبل في حالة غيبوبة ولا وعي، لقد أخذنا نحس بأننا نختلف عن الناس، ونتميز بأننا نفكر في الحياة بعد الموت، ونيل رضاء الله سبحانه وتعالى.

أما العطلات السنوية والتي كنا في السابق نخصصها للمتجر والسباحة والقراءة فقد أعدت توظيفها لمصلحة جبهة الميثاق وشؤون دارها وعملها بالحصاحيصا، فأصبحنا نتصدر الاجتماعات، وننتقد الشيوخ، ونتكلم عن مصيرهم في أمر الدعوة.

وفي الحصاحيصا نمت علاقاتي بعدد من الأخوان والذين كان يمرون على الحصاحيصا متربصين و(متخوفين)، ومازلت أذكر الأخ يوسف إبراهيم جبريل رد الله غربته بزيه ونمطه المهيب الذي كان يحرص على المبيت معي في الحصاحيصا متى ما جاء إليها، وكذلك الأمين الحاج، وأحمد علي الإمام، وجعفر ميرغني، وكمال إمام، والمرحوم عبد الإله خوجلي، والمرحوم الدكتور عبد اللطيف كدو.

ومع أنني أصبحت أخاً ملتزماً إلا أنني كنت محباً لعبد الناصر، وكنت أنتظر خطبه على أحر من الجمر، أو كما ينتظر عشاق الكرة لقاء الهلال والمريخ، لذا فلا عجب أن قاومت الدمع حينما أخذ يتلو خطاب استقالته بعد حرب يونيو ١٩٦٧م، ومن العجيب أن جمعت ما بين حب جمال وخصمه شهيد الإسلام وعملاق الفكر الإسلامي (سيد قطب).

لقد جنى عبد الناصر على نظامه وعلى العالم الإسلامي بل والبشرية باضطهاده للحركة الإسلامية في مصر، أحببنا عبد الناصر لأنه كان ينفخ فينا روح العزة والشموخ أمام إسرائيل وأمريكا والغرب (الكفار)، ولكن غلطة عبد الناصر الكبيرة القاتلة تمثلت في استبداله السيد الأمريكي بالسيد الروسي، وقد وعى ناصر تماماً ذلك بعد الهزيمة. وبعد تجرعه مذلة النكبة عام ١٩٦٧م، ومن المؤكد أن عبد الناصر لن يغفر لروسيا حليفته أن سفيرها هو الذي أيقظه ليلة السادس من يونيو ١٩٦٧م طالباً منه عدم البدء بالضربة الأولى، ثم كان ما كان من أمر مرمطة الروس له حتى مات مهزوماً مكسور القلب، منهك الفؤاد، مشيعاً بلعنات الآلاف من ضحايا حكمه. ومهما يكن عداء عبد الناصر للحركة الإسلامية إلا أن معدنه وقامته كانت تختلف تماماً عن قيادات عالم المسلمين فيما بعد كامب ديفيد، حكام عصر الظلام.

وما زلت أذكر انتخابات الجمعية التأسيسية الثانية، وكيف كنا منفعلين بما يدور في دائرة المسيد، وكم مرة امتطينا عربة شيخ التنقاري (أين هو الآن؟) في معية الشيخ السماني حسين، ومحمد سعيد الجاك، وما حدث للدكتور الترابي في دائرة المسيد صورة مكررة لما حدث في دائرة الصحافة.

ومن الأحداث التي لا تنسى معسكر (ألتي)، والذي ضم قيادات الحركة الطلابية على مستوى السودان في بداية عام ١٩٦٩م، وكان لمعسكر - ألتي - مغزى خاصاً، حيث كانت تدور في أركانه الهمسات بين الكبار حول الصراع الذي يدور في دوائر الحركة الإسلامية بين دعاة مدرسة التربية ورواد مدرسة العمل السياسي، ولا يبدو أنه كان صراعاً حول مفاهيم وأفكار. وإنما هو في النهاية صراع حول السلطة في التنظيم.

التنظيم كان في حالة انتقال من حركة جماعة خيرية إلى كيان سياسي يتصدى لقضايا الدولة والمجتمع، وقد انتقلت أجواء الحوار والصراع إلى المدارس والشعب، وجاءت أخبار الدعوة لقيام مؤتمر جامع للإخوان لحسم القضايا المعلقة (انتخاب مجلس الشورى الجديد. والأمين العام، وتحديد صلة تنظيم الأخوان بجبهة الميثاق)، في وقت عزف فيه الشهيد محمد صالح عمر عن هذا النقاش وسافر إلى لبنان ليلتحق بكتائب المجاهدين الفلسطينيين. وكان ذلك بالنسبة للشهيد رهان مضمون على الشهادة المضمونة في سبيل استعادة القدس. ومع أنني كنت أتطلع لحضور المؤتمر ولكن هيهات لطالب ثانوي عالي بالتورط في متاهات هذه المعمعة، والتي كشفت جزئياً عن البؤس الذي كانت تعيش فيه الحركة الإسلامية.

وبينما كان رواد الحركة الإسلامية يتبادلون التهاني، أو ربما التعازي حول نجاحات مؤتمرهم، كان هناك عمل سياسي كبير يجري للإطاحة بمجمل الأوضاع السياسية والقانونية والفكرية والعسكرية في البلاد، تبيّنه الأخوان حينما وجدوا أنفسهم بين مطارد ومعتقل و(مرفود) في ٢٥ مايو ١٩٦٩م.

المهم أنني لما لم أجد سبيلاً لحضور المؤتمر فقد كتبت آرائي في مقال ربما لو اطلعت عليه اليوم لما وسعني إلا أن أقهقه على ما فيه من أفكار، وأرسلته لجريدة الميثاق. ثم أخذت أتابع عسى أن أجد مقالي، ولما لم أجده توكلت على الحي الكريم ميمماً صوب الخرطوم. لأستفسر عن مصير مقالي، وكذلك لأزور معسكر (ألتي) وفيه وجدت عصابة من أصدقائي ومعارفي. وحضرت محاضرة لجعفر ميرغني عن الصلاة، وروّحنا عن النفس بالقيام وصلاة الصبح. التي كانت تصلى بطوال السور. ثم يممت صوب الخرطوم، حيث قصدت جريدة الميثاق. ودلفت على مكتب رئيسها الأستاذ عبد الرحيم حمدي، الذي لم يك في مكتبه مكاناً لجالس. وقدمت له نفسي وسألته عن مصير مقالي، فقال لي بأنه رأى ألا ينشر مقالي ومقال لأخ آخر اسمه أحمد عثمان مكي، لأنّ القضايا المثارة فيهما ستناقش في المؤتمر، وكانت هذه هي المرة

الأولى التي أسمع فيها باسم أحمد عثمان مكي، والذي جمعتنا بعدها ظروف الجامعة في زمالة وصداقة ما يزال الله سبحانه وتعالى يمد لنا في أواصرها[1].

ورجعت للحصاحيصا، وأخذت أطل على الحياة من خلال متجرنا هناك، فقد كنا في العطلة الصيفية، إلى أن كان ذات صباح أن عبقت الأجواء بالمارشات العسكرية، ثم صوت العقيد جعفر محمد نميري، وقد مثّل انقلاب مايو رحلة جديدة في حياتي، خصوصاً أنني كنت حينها قد أصبحت من الكوادر الشبابية الطلابية المعروفة، وكنت رئيساً لاتحاد طلاب مدرسة حنتوب الثانوية.

(١) توفي أحمد عثمان مكي في سبتمبر ٢٠٠٤م بعد كتابة هذه الذكريات.

البيان الأول للعقيد نميري وبدايات مايو:

مازلت أذكر ذلك اليوم، حيث ذهب والدي - عليه رحمة الله - لجمع ديون له من زبائنه من مزارعي الجزيرة، حيث درج التجار في الجزيرة على الذهاب لمكاتب التفتيش، أبان صرفيات المزارعين لاستلام ما لهم من حقوق من المزارعين، فور تسلم المزارعين لصرفياتهم، لأن التجار كانوا على يقين من أن المزارعين حينما يتسلمون صرفياتهم لا يحسنون التصرف فيها، ويسفهون ما في أيديهم، لذا فقد وقع عليّ عبء فتح الدكان وتصريف شؤونه، وكان بالنسبة لي عبئاً ثقيلاً، حيث أنني لا أحسن إلا القراءة، ولكنني توكلت على الله مبكراً إلى المتجر.

وما إن بدأت حركة الحياة تدب، حتى سمعت الموسيقى العسكرية، ثم بيان العقيد جعفر نميري، ثم تشكيلة مجلس الثورة التي ضمت بين دفتيها بابكر عوض الله الذي كان معروفاً حينها بعدائه للإسلاميين.

لم يكن من الصعب معرفة اتجاه وتوجه الحكومة الانقلابية، ومع أنني أحسست حينها بالأخطار التي تهدد مسيرة الإسلام، إلا أنه يبدو أنني كشاب كنت منتشياً، فها هو على الأقل التحدي أو الفتنة أو النظام الذي سيضربنا (بيد من حديد)، النظام الذي طالما قرأنا عنه وعن أساليبه في مصر وسوريا وغيرها، وظللت يومها مستثاراً أتتبع الإشاعات والإذاعات التي كانت تزيدنا نكداً على نكد.

وبعد أيام عرفنا خبر المظاهرات التي قادتها الحركة الإسلامية ثم خبر مصادرة المنشور الذي وصلنا من الخرطوم، حيث آلمني وآلم صديقي القاضي محمد سعيد الجاك، ثم أخذت في متابعة أدب (ثورة مايو) ورايتها الحمراء وأناشيدها وحكايات أمنها وشعاراتها وفتوة نميري وحيوية أعوانه الذين أصبحوا فرسان (أحلام البنات) كما يقولون.

ودارت الأيام وفتحت المدارس، وكنت رئيساً للاتحاد، وقد رتّب ذلك عليّ مسئوليات إضافية، وفي حنتوب فوجئت بأن عدداً من أصدقائي قد تم اعتقالهم، وعلى رأسهم عثمان عبد الله النصري، الذي كان عزيزاً على نفسي، لأنني قد أسهمت في ربطه بالحركة هو والشهيد عبد الفضيل، وهنا قبلت الأمر ثم قررت أن أكتب خطاباً بذلك لرئيس مجلس الثورة (النميري)، وبالفعل كتبت الخطاب وصدر أمر الإفراج، ولكنني كنت خجولاً من أمر شفاعتي وكنت كذلك أحس بعقدة الشعور بالذنب، لأنني ورطت النصري في هذه الأمور، فذهب إلى السجن وأنا أستنشق وأنعم بعبق الحرية.

ثم دارت الأيام وتم حل الاتحاد نتيجة لأزمة بينه وبين الإدارة، ولكني أحنيت رأسي للعاصفة، وكان البديل هو الإضراب وإغلاق المدرسة.

ثم ما لبثت أن قامت سلطات مايو بتصفية مدرسة وادي سيدنا لمصلحة توسيع الكلية العسكرية، وتم نقل عدد من الصفوف إلى حنتوب، وقد فرحنا بذلك رغم حزننا على تصفية مدرسة عريقة كوادي سيدنا، وكان مبعث الفرحة انضمام كوادر إسلامية نشطة إلينا منهم د. مجذوب الخليفة وعبد العظيم عبد الله التوم وصلاح قيلي وأبو الريش...الخ، وقد مثلت مجموعة وادي سيدنا نفساً جديداً وإضافة خاصة، حيث شعرنا بأن الكوادر الجديدة أفضل منا في التربية والسلوك وأداء الشعائر وقراءة القرآن والتزام الجماعة والصوم والتهجد، بينما كنا في حنتوب أهل سياسة، خصوصاً شخصي الذي لم تك تفوته شاردة أو واردة في أمور السياسة.

ثم دارت الأيام وإذا بنا وجهاً لوجه مع امتحان الشهادة برهبته، فهو كان وسيظل المصير للدراسة العليا مدنية كانت أم عسكرية. ومع أنني لا أهتم بالامتحانات فقد انتبهت شيئاً ما للمذاكرة، وبينما أنا في حالة استعداد إذ بطارق اسمه حسن عبد الله عبد الحي بطرق عليّ أجواء الامتحانات ويبددها، وعرّفني باسمه وأنه طالب بكلية الشريعة بجامعة الخرطوم، وأنه يريدني لأمر تنظيمي يتعلق بالذهاب للجهاد في الجزيرة أبا.

ومع أنني قد أكرمت الطارق إلا أنني شككت في أمره، لأنني كنت على صلة بالكوادر القيادية في الجامعة، حيث كنت أكثر من التردد على الجامعة والتلذذ بأداء صلاة الصبح خلف حاج نور، وسماع آذان الأمين الحاج، ثم حضور ندوات النشاط وقراءة (آخر لحظة). وما يزال صوت حاج نور في صلاة الصبح ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم: ١) يرن في خاطري، وكذلك صراعاته مع الشيوعيين، ومازلت أذكر عنوان (آخر لحظة الساخر): (شيوعي يسب المسجد الأقصى فيلقى كفاً) إشارة إلى (علقة) أوقعها حاج نور بأحد الشيوعيين الذين أساءوا لأولى القبلتين وثاني الحرمين. لذا فلا عجب أن شككت في أمره، ثم تساءلت: لماذا أرسلوا هذا الحسن الذي لا أعرفه، علماً بأن معظم الكوادر القيادية بالجامعة (محمد علي الأمين، كمال إمام) على صلة ومعرفة بي. المهم وضعنا احتمال أن يكون الأخ (طابوراً خامساً) أو أن يكون مرسلاً من قبل الجماعة فعلاً. فرددناه بالحسنى، ليجيئنا في اليوم الثاني الأخ محمد عبد الله جار النبي، الذي كانت شهرته قد ملأت الأفق، أفاقنا بالندوة التي أدخلته السجن، وهي (الشيوعية وسرقة الثورات).

ما يهم في الأمر أن جار النبي جاءني وأنا وسط أوراق الامتحانات، ليؤكد أن حسن مرسل من قبلهم، وأنهم يريدونني لأمر (أبا)، وبالطبع فقد خصصت اليوم لجار النبي، وعبرت معه بالمعدية إلى مدني، ثم سرت وإياه بشارع النيل، ثم انعطفنا بعد ذلك إلى سوق مدني الجديد، حيث ودعته إلى الخرطوم، وأنا إلى الامتحانات بحنتوب.

وحتى اليوم لا أدري لماذا سرنا كل هذه المسافة من حنتوب حتى السوق الجديد مشياً على الأقدام؟ هل لطبيعة الحديث التي تقتضي السرية والكتمان؟ أم الإثارة؟ أم التوافق النفسي؟ أم الفلس (أجرة التاكسي)؟ وما يهم وفي طريق العودة استحوذ على مشاعري وفكري أمر الجهاد في (أبا) .. التدريب كيف سيكون؟ ونسيت أمر الامتحان وأخذت أدخل الامتحانات كأداء واجب إذ استغرقني الامتحان الكبير، كما أنني أحسست بأن المرحلة القادمة مرحلة مفاصلة وتمييز وجهاد، ليس بينه وبين امتحانات العبور للجامعة صلة نسب.

انتهت الامتحانات وودعنا حنتوب، لأستقر في الحصاحيصا منتظراً إشارة الذهاب (لأبا). ومازلت أذكر تلك الأيام الصعبة الكئيبة، وزيارة النميري للنيل الأبيض واستفزازه للأنصار. واستفزاز الأنصار له، حتى تطورت الأمور، وفيما يبدو أن الشيوعيين وأياد أجنبية أخرى. كانت تستحث نميري على التعجيل بالضربة الأولى والقضاء على المعارضة في مهدها قبل أن تستفحل الأمور، وما يهمني فقد داهمني أمر (أبا) وأنا بالحصاحيصا، ومازلت أذكر فصول تلك الرواية وفيها نظمت مظاهرات الغوغاء هاتفة (رأس الهادي مطلب وطني)، وكان للغوغاء ما أرادت، وعلى حد قول شوقي:

الشعب يهتف بحياة قاتليه يا له من ببغاء عقله في أذنيه

ومن شرفة متجرنا أخذت أتابع تداعيات أحداث الجزيرة أبا، العثور على وثائق قائمة أسماء المتورطين، جوال من الوثائق، إلى غير ذلك من أساليب الحرب النفسية. أما بالنسبة لي فقد كان باطن الأرض خير من ظاهرها. فقيادة الحركة الإسلامية معتقلة منذ أيام مايو الأولى، ليس هنالك صور واضحة عما حدث للكوادر الإسلامية، على الأقل محمد صالح عمر ومهدي إبراهيم وعبد المطلب والشيخ المجاهد محمد محمد صادق الكاروري...الخ.

ولم يبدد أجواء الانقباض والكآبة إلا وفاة الوالد، حيث شكلت وفاته منعطفاً في حياة العائلة، وحقيقة مات الوالد وفي نفسه شيء من أبنائه الذين رفضوا بعناد أن يسلكوا طريق التجارة، ولازلت أذكر أن والدي كان يجلس بجانبي ويدعو ألا أوفق في امتحانات الجامعة،

حتى أقتنع بمساعدته في إدارة أمور المتجر - ولكن هيهات - لقد مات وهو راض عنا باستثناء زهدنا في التجارة، حيث ابتلعت المدارس والجامعات أبناءه، ويظل المتجر مهدداً حيث أن أخانا الكبير الذي أكره على متابعة أمره كان كذلك كارهاً له.

وفي وفاة الوالد كانت الفرصة لملاقاة عدد من الأخوان لمعرفة نتائج أحداث (أبا) الأخ (القاضي حينها) محمد الأمين عطايا، والسماني حسين، ومحمد سعيد الجاك، والمرحوم د. عبد اللطيف كِدّو، وآخرين، كما كان مجلس العزاء فرصة لتجديد علاقاتي مع الأخوان الجمهوريين سعيد الشايب وإبراهيم يوسف (أين هو الآن؟) وآخرين.

ومازلت أذكر أنني أدرت مؤشر الراديو لأستمع لنتيجة القبول للجامعة وأنا مستلق على سرير، والهدوء يلف المنزل في ظروف ما بعد العزاء، والوالدة في حداد، ومن الراديو انبعث صوت المذيع الذي كان يذيع في قائمة المقبولين. وسرعان ما دلف إلى كلية الآداب ولم يستغرق الأمر وقتاً إذ كان اسمي السابع عشر فأغلقت المذياع ورحت أفكر إلى أين يكون المستقر: الجامعة، أم الخروج من السودان، أم المتجر. وترددت في إبلاغ الوالدة بالخبر فيكفي ما هي فيه، ولكن بعد فترة تماسكت وذكرت لها أمر إذاعة اسمي ضمن المقبولين وقد هللت أختي الكبيرة والتي ننظر لها كذلك بمثابة أم نسبة لإسهامها في تربيتنا.

ثم شعرت بأن الاكتفاء بالقبول في الجامعة لا يمكن أن يكون إسهاماً كافياً، فالأولى التقديم للكلية الحربية، إذ التحدي من المؤسسة العسكرية، فخير أن تحاول اقتحام هذا الصرح. وبالفعل أقنعت صديقي حسن عبد الله والذي تتقاطع صداقته وتضعه في خانة الأخ بأن يقدم معي للكلية الحربية، وبالفعل ظهرت أسماؤنا في القائمة الأولية، وهنا على الفور جاءني الصديق بهاء الدين حنفي، مدعياً تمثيل شعبة الجامعة، ذاكراً لي بأنه أولاً يستحيل قبولي في الكلية الحربية، وثانياً بأن الجامعة في هذه الظروف أولى، وطال النقاش وخرج بهاء الدين منتصراً، ولعلي أستطرد هنا في أمر صديقي حسن، (وهو الآن بالمعاش) الذي استطاع بذكائه ودهائه دخول الكلية الحربية، ثم أنني لم أسمع عنه شيئاً إلى أن وجدته يرفع قضية مع بعض الضباط على جريدة الراية مطالباً بتعويض قدره بضعة عشر مليون جنيه سوداني لأن الراية وصفتهم بأنهم (بعثيين) وقد زارني حسن - الذي يعمل الآن في دولة الإمارات - ليذكرني بأنه في أحد جلسات المحكمة سأله القاضي لماذا تعتبر أن وصفك بالبعثية إشانة سمعة - والرواية لحسن - فقال: قلت لأن

ذلك عيب، فقال: هنا تهلل وجه مهدي إبراهيم رئيس تحرير الراية حينها، وغضب زملاؤه من الضباط الذين أحيلوا معه للمعاش، والذين كان لبعضهم فيما يبدو روابط مع حزب البعث، وجاءت ثورة الإنقاذ ونسي الجميع القضية.

وقد كان لحسن هذا دور كبير في انتفاضة رجب - حسب روايته - وقد ذكر لي المقدم معاش حسن عبد الله أنه وثلاثة ضباط آخرين تألموا جداً مما فعله المرحوم الفاتح بشارة حاكم كردفان مع الحركة الإسلامية ومع أحمد إبراهيم الطاهر، وأنهم التقوا مع أحمد إبراهيم الطاهر في السلاح الطبي وقرروا الثأر من نميري وأعوانه. ولما حدثت تفاعلات ثورة رجب من اعتقال للإسلاميين، ثم خروج للمظاهرات في وقت تضعضع فيه النظام داخلياً بأحداث الفلاشا، وخارجياً بتداعيات تطبيق الشريعة وإعدام محمود محمد طه، وذكر لي حسن بأنه شخصياً قام باعتقال من يقومون بفتح أبواب المصارف، ومصادرة المفاتيح. فلذلك نجد أن إضراب المصارف الذي مثل بداية حركة الإضراب السياسي تحصيل حاصل، وأنهم ساهموا كذلك مع الآخرين الذين كانوا يعملون من داخل القوات المسلحة لتحريك الجيش لاستلام السلطة، وربما صدق في هذه الأخيرة، إذ حدثني الأخ ربيع حسن أحمد بأنه كان قد كتب البيان رقم واحد لمجموعة انقلابية أخرى.

المهم بعد هذا الاستطراد دخلت الجامعة وحضرت لقاء الطلاب الجدد بالسيد المدير بروفيسور عمر محمد عثمان وسكرتارية الجبهات التقدمية، أما السيد المدير فقد حذرنا من جماعات اليمين، وأن الجامعة منحازة انحيازاً كاملاً لحركة اليسار، وقدم لنا أعضاء سكرتارية الجبهات التقدمية باعتبارهم اتحاد الكلية، ولكن أعضاء السكرتارية كانوا أكثر أمانة وقالوا إنهم ليسوا باتحاد، وإنهم مجرد إدارة تصريف، وإنهم يمثلون القوى التقدمية في الجامعة، وإنه غير مسموح لليمين والأخوان على وجه الخصوص بأي تحرك مهما كانت تفاهة هذا التحرك. وبالنسبة لي لم يكن هناك جديد إذ تابعت كيف تمت تصفية اتحاد علي عثمان (الذي كان رئيساً لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم) بعد سقوط توصية الاتحاد بمقاومة فصل الأساتذة السبعة عشر الذين فصلوا لميولهم الإسلامية، حيث خرج الشيوعيون يهتفون (سقطت سقطت يا حمد الله) ثم حلوا الاتحاد وشردوا أعضاءه، مما يحتاج لمقال كامل قد لا يدخل في سياق التجربة الذاتية.

وفي الجامعة كان جو الاتجاه الإسلامي قد تغيّر، وأدى الضغط والكبت إلى ظهور عقلية جديدة، عقلية الانكفاء على الذات والتدين الشخصي وتتبع الأحاديث والرقائق المتصلة بالزي

والزينة والشعر... الخ. وكان الجو كله ميتاً ساكناً مما زهدني في الجامعة التي عرفتها تموج حركة وكفاحاً ومناظرات وندوات وملصقات ومكبرات صوت، مما دفعني لمطالبة أمير أسرتي (خليتي) بمقابلة المسئول، وبالفعل حدد لي موعداً في داخلية الرهد مع الأخ المسئول، والذي كان حينها الطالب بكلية الهندسة محمود شريف، وتكلمت معه عن الوضع، ووجدته متفهماً، واتفق معي على أنه من المهم عمل شيء، ولكن متى وكيف فعلمه عند الله سبحانه وتعالى.

ويبدو أن المقابلة كان لها تأثيرها إذ عهد إلي بإلقاء خطبة الجمعة، وفي الخطبة تكلمت عن الجهاد، وعن أوضاع المعتقلين. ومع أن الخطبة لم يكن فيها جديداً إلا أنه كما يبدو كان لها تأثيرها، إذ عرفتني على الأقل بشخصين الأول هو د. التجاني إسماعيل والقادم لتوه من روسيا بعد أن أكمل الماجستير والذي هنأني على الخطبة، ولكنه أردف قائلاً إن جلابيتي ممزقة ويحسن بالإمام أن يكون حسن الملبس. أما الشخص الآخر فهو الشيخ إبراهيم العباس المزارع التقي، والذي يعمل بالزراعة في توتي، والذي لا تفوت عليه شاردة أو واردة في العمل الإسلامي، رغم إظهاره لغير ذلك، ويبدو أن أخبار خطبة الجمعة قد بلغت شيخ إبراهيم العباس وكان كغيره مكبوتاً وكان يجب سماع صوت ضد الحكومة في فترة ما بعد أبا ومحاصرة الاتجاه الإسلامي بجامعة الخرطوم.

وصلتني رسالة شيخ إبراهيم عن طريق أحمد عثمان مكي، وأخذني أحمد عثمان إلى شيخ إبراهيم في مزرعته ببحري، وقضينا نهار ذلك اليوم معه، ثم أصر عليّ أن أذهب معه للمبيت في توتي، فتوكلت على الحي الذي لا يموت وعبرت إلى توتي. وكانت الزيارة الأولى. وهناك فهمت أن منزل الشيخ إبراهيم مدرسة حركية قائمة بذاتها، حيث يتم فيها تعلم القرآن والتهجد والتفاعل الاجتماعي واللقاءات، وفي ذلك الوقت كانت الحركة الإسلامية لا تكاد تلتقي إلا في بيت شيخ إبراهيم، أو مسجد يوسف إبراهيم النور بالملازمين، أو مسجد الهدية بأم درمان. وهكذا بدأت تلك الصداقة القوية مع شيخ إبراهيم الذي أصر على الذهاب للحج في نهاية العام وقد فعلت، ولكن كيف انتهى العام؟.

بعد أيام من خطبة الجمعة استدعينا إلى داخلية الرهد وأمام منضدة صغيرة جلس الأخ عبد الرحمن إبراهيم وكان حينها المسئول السياسي لشعبة الجامعة وأمامه رزمة من الأوراق ومصحف، وطلب مني أداء القسم بأن أتعهد بعدم كشف أي سر يتعلق بالمهمة التي

ستوكل لي، وبعدها قام بإعطائي كمية من المنشورات ممهورة بإمضاء الجبهة الوطنية، ورغم أجواء البطش والإرهاب فقد كنت فرحاً بذلك، فعلى الأقل بدأت المقاومة.

ولما خرجت امتطيت واحدة من حافلات مواصلات الخرطوم، ولفرط سعادتي وجدت مقعداً خالياً بجوار الأخ عبد الله عبد الصادق عفنين، والذي كان يرتدي فنيلة صوف يبدو عليها الانتفاش، وفهمت على الفور أن رفيقي مثلي مزود بالمنشورات والتي كانت من المهلكات في ذلك الزمن، وقد عادوني طيشي وعدم اكتراثي فقلت له ضاحكاً (ليه فنيلتك منفوخة كدة، جواها في سندوتشات؟) وهنا تحرك عبد الله دون كلمة ونزل من البص، وحينما تحرك البص أدركت أنه تصرف التصرف الصحيح، وأن الأمر جد ويحسن بي إلا أخلط الجد والهزل في مثل هذه المواقف المصيرية، وبالفعل فقد تحركت إلى منطقتي وقمت بتوزيع منشوراتي بسلام.

وبعد قيام الاتجاه الإسلامي بإصدار بيان على البوستر وفي النشاط حاول اليساريون إنزال البيان فحدثت مشادة كنت كالعادة طرف فيها. ومع إن وفد الإدارة واليسار ذهبا في حالة انكسار إلا أن الرد جاء فورياً بإلغاء أمر القبض على ١٧ من أعضاء الاتجاه الإسلامي وكان العبد الفقير من بينهم، ولكن يبدو أن أمر القبض قد جاء في غير موعده لأن الجامعة كلها كانت معبأة - لا أدري إلى الآن لماذا - ضد النظام، ربما يتعلق الأمر بإجراء الامتحان المهيأة للانفجارات، وجاءت معلومات عن خطاب ألقاه نميري في حنتوب عن تغيير نظام الإعاشة في جامعة الخرطوم. وما يهم لم يك أعضاء الاتجاه الإسلامي يعرفون ماذا قال نميري؟ وما هو شكل نظام الإعاشة البديل؟ ولكن ما أذكره أن غرف أعضاء الاتجاه الإسلامي أصبحت مشغولة، وها هو علي عثمان يجول هنا وهناك، وهذا إسماعيل حسن حسين يحرض الطلاب، وها هي المظاهرات تشتعل وتهتف (لا تبعية لمحي الدين)، أي لا تبعية لمحي الدين صابر وزير التربية الذي أضعف منهج التربية، وصفّى الجامعة الإسلامية، ودخل الكنيسة في وفاة ديجول (بالطبع الأخيرة لا غبار عليها).

المهم اندلعت المظاهرات وجاء عبد الله محمد سيد أحمد على رأس مظاهرة من شمبات. واعتلى محمود شريف المنبر وأعلن الإضراب والاعتصام المشهور بإضراب واعتصام ١١ مارس ١٩٧١م. وفي إجراء الاعتصام الذي قادة اسماً ما يمسى بوحدة الطلاب، وفعلاً الاتجاه الإسلامي ومكونات الجبهة الوطنية.

ارتكب الشيوعيون خطأهم الأكبر الذي حرمهم من الجامعة بل ومن السودان، حيث تحدوا إرادة الطلاب وذهبوا لوزارة الداخلية وحرضوا الحكومة على ضرب الطلاب واقتحام الجامعة، بل جاء بعضهم يمتطون الدبابات وهم يهتفون (بالعنف الثوري يا فلان) و (اضرب اضرب يا فلان)، ولكن صمود إرادة الطلاب أمام الدبابات كسر الإرادة المعاكسة. إرادة الحكومة الثورية التي دخلت في حوار مع الطلاب انتهي بالموافقة على شروط حركة وحدة الطلاب وهي:

١. إعلان حل سكرتارية الجبهات التقدمية.

٢. اعتبار الجامعة في حالة إضراب.

٣. الاعتراف بوحدة الطلاب كممثل شرعي ووحيد للطلاب.

وخرج الطلاب من الاعتصام وهم في نشوة وسكر لم أرها حتى اليوم، ولا أظنني سأراها في مقتبل عمري، لقد كان يوماً عظيماً، ويوماً له عبقه ونكهته. لقد تم تسجيل أول انتصار على اليساريين وعلى حركة الضباط المايويين وبدون خسائر، ويومها لم تتم الجامعة حتى الصباح، أما صاحبكم فقد كان سعيداً لأمرين، إذ خلّصه الإضراب من أمر القبض وكذلك من ورطة الامتحان، بل ومن كل جو الجامعة الخانق، حيث كنت مصدوماً حتى بالجو الأكاديمي، كما صدمت حينما بدأت أدرس الفلسفة التي كنت أراها علماً سامقاً يقوي ملكات الإنسان العقلية، ويفتح مداركه، ولكن ما إن بدأت محاضرات الفلسفة حتى وجدت علماً يجفف المدارك، ويستلب المقدرات الفكرية، وليس هناك ثمة فائدة من الإخلاص في حضور محاضراتها، وكدت أترك الجامعة لأنني أحسست بأن دراسة الفلسفة لا تجلب فائدة، ولا تصرف شراً، وأن قضاياها تعطل الفكر والنظر، وصدق الغزالي الكبير حينما وصفهم بأنه (طائفة من ذوي الآراء المنكوسة والأفكار المعكوسة).

فصلي من جامعة الخرطوم وانقلاب العطا:

الحياة ليست كلها سياسة، إذ تتداخل السياسة والاعتبارات الإنسانية والاجتماعية، وفي حفل السفارة الليبية بذكرى الفاتح من سبتمبر وجدت نفسي بين المرحوم الدكتور عمر نور الدائم والأستاذ ميرغني النصري، واكتفينا بالحديث مع بعضنا حتى انفض السامر، وعلق ميرغني النصري قائلاً وددت لو أن الحياة السياسية في السودان تكون مثل الحياة الاجتماعية إذاً لأصبحنا أعظم شعب وإنا لكذلك.

وقد ذكرتني هذه الثرثرة التي لم تخل من غمز ولمز خصوصاً من جانب د. عمر بالاعتبارات الإنسانية التي شغلتنا في أثناء مواجهتنا الأولى مع سلطة مايو في مارس ١٩٧٠، إذ بينما كان الناس مشغولين بتجهيز السيخ والإعداد للإضراب، كنا كذلك مشغولين بأمر شيخنا وصديقنا زين العابدين يوسف، والذي كان في السنة الثالثة في كلية الآداب، والذي حفظنا على يديه سورة البقرة – شخصي و د. بكري عثمان سعيد وآخر نسيته الآن.

لقد اعتقل زين العابدين لفترة مع عدد من الأخوان الجامعيين، ثم أصيب بألم حاد في الكلية، ثم تطور هذا الألم إلى توقفت كليتاه تماماً في أثناء المجابهة، وبالطبع ففي يوم ١١ مارس نسينا موضوع زين العابدين، ومع انتهاء المجابهة ودخولنا في الإضراب أصبحت غرفتي مزدحمة كالعادة بالزائرين، حيث كنت أتنازل عن سريري لأهم الضيوف، وأذهب لأنام مع بقية ضيوفي في المسجد. وفاز بالسرير في ذلك اليوم صديقي – الطبيب الآن – محمد الحسن التكينة، وفي الصباح قررنا الذهاب لزين العابدين في مستشفى الخرطوم.

وصلنا المستشفى، وهناك علمنا أن الإسعاف قد تحرك بزين العابدين إلى مطار الخرطوم للحاق بالطائرة السودانية المتجهة للندن، ومع أن دراهمنا كانت معدودة إلا أننا استطعنا أن نقنع سائق التاكسي لأخذنا للمطار بما تيسر، وهناك هرولنا للشرفة التي كانت تكشف عن حركة القادمين والمسافرين، ذاك جعفر ميرغني، وهذا مالك بدري، وهؤلاء أصدقاؤنا الآخرين، ثم نرى جثماناً، وعقدت الدهشة ألسنتنا، هل مات زين العابدين؟ ثم فجأة رأيناه بين اثنين من إخوانه يدرجونه على سلم الطائرة، وأقلعت الطائرة وتنفسنا الصعداء، ثم هبطنا سريعا لنكتشف أمر وسر الجثمان.

لقد كانت قصة غريبة وفيها لمسة من كرامات زين العابدين، وتبدأ القصة منذ أن اخبر الأطباء د. مالك بدري وجعفر ميرغني وأبو الريش أن أمر زين العابدين ميئوس منه، لأن

كليته قد تعطلت، لكن بدلاً من أن يستسلم هؤلاء أخذوا يسعون في محاولة لتسفير زين العابدين لإنجلترا، والمشكلة أن زين العابدين لم يك يملك أوراقاً ثبوتية بباسبورت وجنسية، ثم التأشيرات والقومسيون الطبي وموافقة الجامعة على دفع نفقات العلاج لطالب مشاكس معاد للنظام بالعملة الصعبة، ثم إجراءات السفر من تذاكر ..الخ.

من يصدق أن كل ذلك تم تجهيزه في أقل من أسبوع، ربما ثلاثة أيام، ألا يدل ذلك على عظمة أهل السودان، وأن الحياة الاجتماعية والإنسانية بتماسكها تمتص ألوان الحزازات والصراعات السياسية، والأعجب ما حدث في المستشفي، إذ في الأيام الثلاثة التي قضاها طريح المستشفي تعرف عليه ممرض قبطي، فأعجب بعلم وسماحة زين العابدين ثم أعلن إسلامه له، وحينما نقل زين العابدين إلى المطار أصر أن يكون في رفقته لوداعه.

وهناك في المطار ذكر مسئولوا الطيران بأن لوائح السفر لا تسمح بسفر زين العابدين. لأنّ حجزه يتطلب سريراً أو مقاعد مجهزة للرقاد، ولا يوجد ذلك في الطائرة، وأن أمر حمله على كرسي عادي مخالف لقوانين الطيران المدني. واشتبك د. مالك بدري مع أهل المطار، في محاولة لإقناعهم بخطورة الموقف، وأنهم يسابقون الزمن وآلام زين العابدين بانتشار تراكم السموم. وبينما هم كذلك إذ بالممرض القبطي يقع ميتاً، لقد مات على لا إله إلا الله.

أدى موت الممرض إلى تغيير الموقف تماماً، حيث تحول الجو الرسمي إلى جو متعاطف. تسيطر عليه رهبة الموت، سافر زين العابدين، وحمل الإسعاف جثمان الممرض إلى أهله. ولما كانت هنالك استحالة في إثبات إسلامه، فقد اكتفى الإخوة بالصلاة عليه.

انفض سامر الجامعة، وغادرت للحصاحيصا حيث كان في انتظاري الأمين الحاج. والذي كان يعلم شغفي بكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وذكر لي بأنه سيعرفني بأخ كريم له ولع بكتاب إحياء علوم الدين، وهو عبد السلام سليمان، وكنت أول مرة أسمع بهذا الاسم، ولكنني سعدت أن وجدت لي نصيراً، حيث كانت ثقافة الأخ المسلم حينها تتركز في رسائل البنا وكتب سيد قطب وأخيه محمد قطب، ثم الغزالي، فتفسير ابن كثير.

أما أمر العقائد فلا ينفع فيها إلا كتب ومذكرات ابن تيمية وابن القيم، وكان ذلك من

آثار الحركة التي قادها جعفر ميرغني وحاج نور، وكان من أهم ثمارها التوجه نحو القرآن وكتب السلف، تأخر تعرفي بعبد السلام سليمان حيناً من الدهر، فقد كان يعمل بكريمة الثانوية ومعه الزبير بشير.

اقترح صديقنا الجديد موسى أحمد الطيب علقم المحاضر الآن بالجامعة الإسلامية أن نذهب وهو والأمين والعاقب سليمان طه وآخرون إلى ود الفادني لحفظ القرآن، وفعلنا ذلك ودهشنا للجو الروحي الذي يحيط بود الفادني وسماحة أهلها وكرمهم الفياض، لقد غمرونا بعطفهم في وقت كنا فيه شبه مطاردين وغير مرغوب فينا، في ود الفادني ميزنا بقية الطلاب، فتم اختيار ديوان الخليفة مقراً لإقامتنا، ولقد أكرمنا الله برؤية الخليفة الوالد المرحوم حمد النيل، كما أصبح بيني وبين ابنه العامل الزاهد الخليفة الريح صداقة قوية معه ومع إخوته الأتقياء، وهكذا أصبح لنا ملاذاً آخراً بالإضافة إلى بيت شيخ إبراهيم، ومسجد يوسف إبراهيم النور، ومسجد الهدية، ومكتب المحامي محمد يوسف.

وبينما كنت أتردد بين ود الفادني والحصاحيصا، أرسل لي الأخ الكريم السماني حسين - وكان حينها رئيساً لشعبة الحصاحيصا - للحضور لأمر مهم، وذكر لي بأنه قد جاءه واحد من الذين تعرف عليهم داخل السجن من أعضاء الجبهة الوطنية بخطة لاختطاف طائرة من (مطار عنتبي/بيوغندا) وعدم الإفراج عن الطائرة إلا بعد إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وعلى رأسهم د. الترابي. وقال إن الشخص ذكر بأن العملية تحتاج بالإضافة إلى السرية إلى المال، وإنهم يريدون من السماني أن يسد ثغرة المال. ومع أن الخطة راقت لي إلا أنه تقرر أن أسافر للخرطوم لمقابلة مسئول الأخوان الذي لم يكن معلوماً لدينا، وكنا نتعامل معه من خلال مسئول مكتب الأقاليم الأستاذ أحمد محمد شاموق، ومع أنني لم أعرف لشاموق منزلاً أو مكتباً، فقد ركبت بصات الحصاحيصا الميممة شطر الخرطوم متوكلاً على الله الواحد القادر.

ومن موقف بصات الحصاحيصا في السجانة، إلى المحطة الوسطى في الخرطوم، ولدهشتي كانت مقابلتي لشاموق كأول شخص يمر في طريقي، ولا شك أن ذلك إكرام من الله الكريم الذي إذا أراد أن يكرم عبداً فعل الفعل ونسبه إليه.

أخبرت شاموق بالقصة، فأخذني على الفور لمسئول الأخوان عبد الله بدري، وكنت سعيداً جداً لاصطيادي عصفورين، سهولة عثوري على شاموق، والآن أتعرف على مسئول الأخوان الذي كانوا يحيطونه بهالة من السرية والتكتم، وذهبنا للأستاذ عبد الله بدري في منزله بأم

درمان، وهناك أطلعت عبد الله بدري على القصة، وكانت رؤيته أنها مجرد محاولة ابتزاز، ولكنه وعد بتتبع الأمر. ومن ذلك اليوم بدأت صداقة مع الأستاذ عبد الله بدري حيث صرنا ندلف إليه كلما ألمّ بنا طارئ.

عرجت مساء ذات يوم إلى متجرنا بالحصاحيصا، والذي أصبح يديره شقيقي الأكبر عثمان، والذي كان كذلك مزاجه منصرفاً عن التجارة فبدأت الرفوف تخلو من البضاعة، كما تناقصت حركة الزبائن. والعجيب لا هو ولا أنا كنا مشغولين بهذه القضية، وما زلت أذكر أن عثمان كان يتوضأ استعداداً لصلاة المغرب حينما ذكرني بأن هناك خطاب باسمي وصل اليوم من الجامعة، وفتحت الخطاب الذي لم يك يحتوي على أكثر من عبارتين (نسبة لسلوككم في العام الماضي، وعملكم على عدم استقرار الجامعة، فقد قرر السيد المدير فصلكم عن الجامعة). وكان التوقيع للمربي الفاضل الأستاذ المرحوم علي مصطفى نيابة عن مدير الجامعة.

لم أعبأ كثيراً بالخبر حيث لم أك حريصاً على الجامعة، خصوصاً بعد تجربتي مع الفلسفة، والتي اعتبرتها مضيعة للوقت. ومزقت الخطاب، ونسيت هذه القضية، وعدت لود الفادني حيث فوجئنا ذات يوم بانقلاب المرحوم الرائد هاشم العطا، وكنا حينها مجموعة من الأخوان من شتى المذاهب، تدارسنا الأمر ثم قررنا أن نقضي الليل كله في قراءة (يس) تيمناً بها، وكذلك لأنه وقع في خاطرنا حديث (يس لما قرئت له). وفي ذلك اليوم انصرف كل مسيد ود الفادني إلى قراءة سورة (يس) وفي اليوم التالي عدت للحصاحيصا حيث وجدت الأخوان في حالة كئيبة من الضيق وشعور بالإحباط وعدم الأمن، واقترح عليّ الأخ محمد الهادي التفكير في الاغتيالات والتصفيات، وأنه مستعد لأن يكون البادئ في هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر، كما فكرنا في المظاهرات، ولكن آثرنا في النهاية أن نتريث حتى يأتينا رأي الخرطوم. ولكن تلاحقت الأحداث التي لم يوجد لها تفسير حتى اليوم، حيث كانت العراق هي الدولة الوحيدة التي أيدت الانقلاب، وسارعت بإرسال طائرة محملة بالسلاح وكذلك بعدد من القيادات البعثية، ولكن انفجرت هذه الطائرة في سماء جدة في طريقها إلى الخرطوم. والأمر الثاني أن طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي كانت تحمل عدداً من رموز الانقلاب من بينهم السيد فاروق

حمدنا الله، وبابكر النور تم إنزالهما في ليبيا، كما أن أيادي خفية تحركت وزودت الجنود بإبر الدبابات، حيث كان الانقلابيون قد سحبوا هذه الإبر من الدبابات. وبالإضافة إلى العناية الإلهية والتدخل الخارجي فقد لازم سوء الإعداد والطالع الانقلابيين، حيث :

(١) كانوا يفتقدون الثقة في غيرهم، لذا فقد ظل الانقلاب محصوراً في الفئة الصغيرة التي قامت به، وحين جاء اليوم الثالث كانت هذه الفئة مرهقة لم تنم طيلة الأيام الثلاثة، وكانت تشعر بأنها قد وقعت في فخ.

(٢) لم يكون توزيع الأدوار واضحاً وفشلت قيادة الحزب الشيوعي في استقطاب الشارع السياسي، بل وقعت في الخطأ الأكبر حينما سيرت مظاهرة تزينها الأعلام الحمراء ولسان حالها يقول: الذي لا يظلله علم أحمر ثكلته أمه، مما جعل الحركة معزولة، والجميع في حالة خوف وإشفاق من هذه القفزة الشيوعية في الظلام.

(ج) فشلت قيادة الحزب في تشكيل حكومة لسد الفراغ، وجعلت المرحوم الرائد هاشم العطا يتخبط بين ذات البنية التحتية التي بناها النميري من وكلاء وزارات وقادة أجهزة حتى أضناه التعب فانهدت قواه وأصبح عاجزاً عن اتخاذ القرار، وقد اتضح ذلك في تركه لنميري وبقية أعضاء مجلس الثورة أحياء، بينما قام بعض المنسوبين له بتصفية الكوادر العسكرية المحترفة في مأساة قصر الضيافة.

(هـ) التدخل الخارجي والذي ظهر في بيان اللواء خالد حسن عباس والذي ذكر فيه بأنه سينزل على الخرطوم بالقوات الموجودة في مصر وقناة السويس.

ويبدو أن الاستخبارات المصرية والإنجليزية والليبية نشطت وتعاونت في أمر القضاء على نظام معزول لم يكن يملك أية فرصة للاستمرار. ولذلك جاءت نهايته سريعة مع حركة المظاهرات والتي شارك فيها كذلك التيار الإسلامي وحيث برز اسم الشيخ عطية محمد سعيد - الذي كان ممن جربوا امتطاء الدبابات في ذلك اليوم- ولقد أبرزت أحداث يوليو التفاعل الرهيب بين الشعب والجيش، كما كشفت عن ضعف شعبية الحزب الشيوعي، وأن الشعب السوداني قد يقبل بالشيوعيين كآلية للتصدي لسلبيات السلطة والسلبيات الاجتماعية الأخرى، وقد يقبل بهم كقوة تحديثية، أما أن يستأثر الشيوعيون بكل السلطة السياسية في السودان - فلم يكن من الوارد أن يتم ذلك بهذه المغامرة العجيبة، إذ أن هناك فرق بين السيطرة على مظاهر السلطة، من قيادة عامة وقصر جمهوري ومرافق حيوية

أخرى، وبين ممارسة السلطة واكتساب مشروعية ممارستها. لقد اغتصب الشيوعيون مظاهر السلطة لعدة أيام، ولكنهم لم يمارسوا أية سلطة سوى بطشهم بمجموعة من الضباط والعزل في قصر الضيافة.

لقد امتنع الناس عن التفاعل مع الفرسان الذين اغتصبوا السلطة، ودخل السودان في إضراب صامت إلى أن كان الفرج والفرح الكبير الذي كان فرحاً حقيقياً في داخل كل بيت وكل أسرة وكل مرفق، ولم يكن هذا الفرج مقترناً بالإعجاب بالنميري وإنجازاته وشخصه. لأن بعض الذين ساروا في ركاب القوى الانقلابية المضادة كانوا قد جهزوا بياناتهم لأنهم كانوا يعتقدون أن الفرسان قد أجهزوا على النميري، بل إنه حينما جاء صوت النميري مثل للبعض صوت البشارة، ولغيرهم صوت الكارثة المعاد.

ما يهم فهم الإسلاميون مغزى فشل الانقلاب وتوقعوا بوادر انفراج، وبالنسبة لي فقد وصلني خطاب من مدير الجامعة الجديد د.مصطفى حسن لازلت أذكر نصه: (لقد كوّن السيد مدير الجامعة لجنة للنظر في أمر الطلاب المفصولين، ويمكن أن ترفعوا طلبكم لهذه اللجنة). ورددت على الفور بنص ما زلت أحفظه (لقد وصلني خطاب بفصلي من الجامعة، وآخر بأنه علي أن أستأنف، وبما أنني لم أفعل شيئاً أرجو اعتبار هذا بمثابة استئناف). وبعد يومين وصلني خطاب (لقد قبل السيد مدير الجامعة استئنافكم). وهكذا صرت طالباً مرة أخرى، وإن كان ذلك لم يعن بالنسبة لي أمراً جديداً!.

وحزمت حقيبتي، وصوّبت نحو الجامعة، حيث دارت رحى معركة بين الاتجاه الإسلامي وحلفائه الجنوبيين (التنظيم الإفريقي السوداني) والجبهة الوطنية. وبين ما يسمى بجبهة وحدة الطلاب، حيث استطاع نظام نميري أن يستقطب قيادة جبهة وحدة الطلاب ويؤمن على مطالبها، وكان نظام نميري يريد أن تكون هذه الجبهة بديلاً للتيار الشيوعي والإسلامي في الجامعة، ولكن هيهات، لقد تم إعلان شهادة وفاة الجبهة في ذلك الحشد السياسي الضخم الذي تحدث فيه وليم بيبور (أين هو الآن؟) عن الطلاب الجنوبيين معلناً براءتهم من الجبهة، وأعتقد أنه تحدث كذلك جار النبي أو بهاء الدين عن الاتجاه الإسلامي، واسم آخر عن شباب حزب الأمة، وانتهت عملياً الجبهة.

كوّن مدير الجامعة لجنة تمهيدية لصياغة دستور الاتحاد ولإجراء الانتخابات. وانتهت اللجنة إلى صيغة الحر المباشر كبديل للتمثيل النسبي، حيث كان في النظام القديم تنال كل قوى سياسية عدداً من مقاعد المجلس الأربعيني يتناسب مع مجموعة كل الأصوات

التى أحرزتها قائمة الجبهة، وجرت الانتخابات، وسعدنا بسماع الأصوات الجديدة في سماء الجامعة، وبالحشود السياسية والملصقات ومكبرات الصوت التي كان يتأذى منها جمهور الأساتذة أيما إيذاء، ولكن من كان فينا يعبأ بالأساتذة، لقد كنا ننظر إليهم كمجموعة منعزلة فى بروج عالية غير مشغولة ولا متعاطفة مع ما نحن فيه من شغل وتقصٍ لاهث لكل دقائق الحياة السياسية.

انتهت الانتخابات بفوز مجموعة الاتجاه الإسلامي - أصلب العناصر لأصعب المواقف - ومع أنني كنت من ضمن الفائزين فى قائمة الاتجاه الإسلامي المتحالفة مع الجبهة الوطنية، ومع أنني منحت فرص مختلفة للكلام، فقد اكتشفت أنني لا أحسن الخطاب الجماهيري على نحو بهاء الدين، وأحمد عثمان مكي، وجار النبي، حيث كانت هذه هي النجوم الزاهرة حينها. والخطاب الجماهيري يحتاج لمعرفة نفسية الجمهور والتركيز على قضاياه مع شيء من المبالغة والإثارة وضرب الأمثال. وإن بضاعتي في ذلك زهيدة، حيث لا أحسن إلا ذكر قناعاتي وإيراد المعلومات، وذلك قد ينفع فى حجرات الدراسة ولكنه ليس السلعة الرائجة وسط الجمهور.

وما يهم تكوّن الاتحاد الجديد وأصبح رئيس مجلسه الأربعيني الأخ تاج السر مصطفى. وكان يبدو أكثر منا اتزاناً وحكمة، كما إنني استغربت حينما أصابه اليرقان ووجدت أنه يملك راديو صغير ويستمع منه أغاني الحب والوجدان.

لقد كان حينها يعد لمشروع زواجه بابنة عمه - وتاج السر كان كتلة من النشاط، ومازلت أذكره يتابع نتائج الانتخابات وهو طريح الأرض، وبالقرب منه سماعة التلفون فى مكتب الاتحاد، وأصبح أحمد عثمان مكي رئيساً للاتحاد، وشخصي سكرتيراً ثقافياً، والمحامي فتحي خليل للشئون الاجتماعية، بالإضافة إلى عباس برشم وفيصل خضر مكي والإخوة سايمون الحاج، وجارلس ماجاك، وهنري ماكنج، أين هم الآن ..؟ ولا أزال أذكر الثلاثي أحمد صديق عمارة، وتاج السر مصطفى، ومعهم الأستاذ ناصر السيد يحثون الخطى إلى دار الاتحاد في محاولة لصياغة دستور الاتحاد الجديد. ولم أك أبداً مهتم بذلك، إذ كنت أعتقد أن عائد ذلك قليل. وركزت على عملي في المكتب الثقافي مما عرضني لحملة شديدة من الشيوعيين الذين كان بعضهم يسكن معي في الغرفة، مما مكنهم من رصد تحركي. ولما كنت انام كثيراً بالمسجد فقد روّجوا لفكرة أنني أدير قضايا شئون الاتحاد من داخل المسجد .

الشيوعيون يعتذرون في ورقة قمت بطباعة الالاف منها وتوزيعها على الطلاب:

مسجد جامعة الخرطوم من الأماكن التى يشدني إليها شوق له مذاقه الخاص. إذ أن هذا المسجد يحرك ذكريات كامنة، ولا زلت أذكر حينما زارنا فى الحصاحيصا عبد القيوم إبراهيم مندوب شعبة الجامعة وعضو لجنة مشروع مسجد الجامعة المقترح. وطفنا معه على أعيان المدينة، وجمع التبرعات من مسجدها، وقد تابعنا ونحن طلاب بالمرحلة الثانوية أمر بناء مسجد جامعة الخرطوم.

وكنا نشعر بالشموخ حينما نزور الجامعة ثم نرى اللوحات الحديدية المخطوطة بريشة الأستاذ الفنان الدكتور حسن عمر (مشروع مسجد جامعة الخرطوم). ولقد أصبح مشروع المسجد جزءاً من الحوار السياسي فى الجامعة حينها، خصوصاً وأن بركات مسجد البركس على صغره استطاعت أن تصمد أمام جحافل المد اليساري بالجامعة في عنفوانها، لذلك كان الشيوعيون واليساريون يقاومون فكرة إنشاء مسجد جامع عملاق في حرم مدرسة غردون التزكارية.

قاوم الشيوعيون فكرة (المسجد) بحجة أنه من الأولى تخصيص ميزانية المسجد لبناء مسرح أو قاعة طعام أو دعم المكتبة، وكأنما قيام هذه المشاريع لا يتأتى إلا بالقضاء على فكرة المسجد. وحينما بسطت سلطة مايو في عهدها الأول قبضتها على البلاد والعباد. لم يبق من مشروع مسجد الجامعة إلا تلك اللافتة الجميلة التي خطتها ريشة حسن عمر. ولا أدري لماذا لم يزيلوا اللافتة حتى ينتهوا من المسجد كمشروع وفكرة.

وبعد انتفاضة ١١ مارس الشهيرة وتنسّم طلاب الجامعة شيئاً من الحرية. وفوز الجامعة بقيادة رشيدة مثّلها البروفيسور مصطفى حسن، اقترحت على صديقي الفاتح علي بابكر أن نقوم بمبادرة لإحياء فكرة مشروع مسجد الجامعة، وشجعني الأخ الفاتح على ذلك. فانتزعت ورقة من كراسة أمامي وكتبت مذكرة توضح خلفية المشروع، وحجم الأموال المجموعة والموجودة بحساب خاص، ثم أخذت الوريقة الصغيرة المكتوبة بخطي - الذي ليس فيه نكهة ذوق أو جمال - إلى مكتب مدير الجامعة برفقة الأخ الفاتح، وسلّمت المذكرة لمدير مكتب الجامعة، ثم لفرط دهشتي تسلمت خطاباً مظرفاً ومطبوعاً وممهوراً بإمضاء المدير التنفيذي لمدير الجامعة يخبرني بأن مدير الجامعة قد وافق على

إحياء فكرة المسجد، وأنه كوّن لجنة للبت في ذلك، وقد اختارني وزميلي الفاتح أعضاء في اللجنة.

ولم أتابع حضور الاجتماعات، أما زميلي الفاتح فقد واصل، ليس فقط حضور الاجتماعات، و لكنه أصبح مقرراً للجنة التي كان يرأسها المرحوم عوض الله صالح ومعه المهندس محمد حمدي، ثم انضم إليهم الأخ د . حسن عمر، والأخ محمد كبير، وعبيد ختم، وإدريس إبراهيم، إلى أن أصبح المسجد حقيقة واقعة.

ولكن حتى بعد مباشرة العمل فى المسجد وارتفاع حيطانه كانت تواجه المصاعب المفتعلة وغير المفتعلة، وأذكر أن المسجد توقف فترة، وكان على رأس الجامعة مدير جديد لي به صلة، كما توسمت فيه الخير، فدخلت عليه في المكتب في أمر المسجد، ولكنني صدمت حينما قال لي: (إذا بنينا مسجداً فسيأتينا الجنوبيون غداً مطالبين بكنيسة).

ولقد أكرم الله سبحانه وتعالى المرحوم عمر بليل بأمر إكمال المسجد، حيث خصص له حصة طيبة من ميزانية الجامعة، وكذلك فعل الرئيس السابق جعفر نميري إلى أن اكتمل المشروع. والآن كلما أمر بشارع الجامعة أحس بالانقلاب الذى حدث في هندسة كلية غردون التذكارية. لقد أصبح يقودها المسجد، حيث أن مسجد الجامعة لم يمثّل فقط تغييراً وانقلاباً في طابع الجامعة، ولكن في كل طابع المنطقة الإفرنجية من الخرطوم، حيث كانت تمتد في شارع الجامعة ثلاث كنائس: الكنيسة الكاثوليكية، وكنيسة القصر الأسقفية، والكنيسة القبطية، بينما حرمت هذه المنطقة التي تسكنها الصفوة والعامرة بالمراكز الحكومية من مسجد.

والحمد لله قد تم تصحيح ذلك بقيام مسجد القوات المسلحة، ثم مسجد القصر - الذي ما يزال يتلكأ فيه البناء، ولعل الرئيس البشير ينتبه له، فيكرمه الله بأمر إكماله، (أكمل المسجد بحمد الله).

لم تكن الحياة كلها صراع، فمثلاً كان يسكن معي في غرفتي شيوعيان هداهما الله، والحمد الله، وكثيراً ما دار واتصل الحوار حول رؤية الإسلاميين للفن والعدالة الاجتماعية. ثم إن الشيوعيين لما رأوا أن الإسلاميين قد طغوا في الساحة السياسية، وأن صوت الشيوعيين قد خفت وكاد صيتهم أن يتلاشى، لجئوا لسلاح الفن في محاولة لاستعادة أراضيهم في مخاطبة الطلاب، ولكنهم اخطئوا للمرة الثانية حينما أرادوا بواسطة الفن الخروج عن المشروعية السياسية التي كان يمثلها اتحاد الحر المباشر.

أنشأ الشيوعيون جمعية المسرح الجامعي، دون تسجيلها في السكرتارية الثقافية للاتحاد، وعمدوا لتجاوز الاتحاد مستفيدين من البيئة التحتية لأجهزة الجامعة الرسمية العامرة بالمتعاطفين مع حركة اليسار، والتي صدقت لهم باستعمال قاعة الامتحانات وميادين الجامعة. وقدمت لهم تسهيلات عينية ومادية، وقد استفز ذلك الأمر رئيس الاتحاد، صديقي أحمد عثمان مكي، والذي أصر على توقف هذا النشاط جملة وتفصيلاً. بينما كنت أفكر بطريقة الخطوة خطوة فى القضاء على محاولات الشيوعيين لتجاوز المشروعية. وباختصار كان أحمد عثمان يرى أنه عليّ كسكرتير ثقافي أن أستخدم صلاحياتي، وآمر بإلغاء الحفل وما يترتب عليه. أما شخصي الفقير فكنت أرى أنه لا مصلحة للمسلمين في أمر كهذا، خصوصاً أن الدعاية للعرض قد جمعت كل المهتمين بالحركة الفنية في أصقاع العاصمة، وأن جل هؤلاء لا يعرفون مغزى هذه العروض. ولا ماذا تعني جمعية المسرح الجامعي، كما إنني كنت على بينة - بأنه لا مصلحة للاتجاه الإسلامي فى دخول معركة على غرار أحداث الأربعاء الشهيرة (الفنون الشعبية).

المهم توكلت على الله، وقررت تجاوز تعليمات رئيس الاتحاد أحمد عثمان مكي. ودخلت في مفاوضات مع قيادة المسرح الجامعي، وسمحت لهم بإقامة العرض، على أن يكتبوا اعتذاراً عن محاولتهم لتجاوز الاتحاد، ويؤكدوا اعترافهم بالاتحاد، وقد حسبت قيادة المسرح الجامعي (القيادة الشيوعية) أنها مجرد وريقة والسلام، ولكنهم ما إن وقّعوا على الورقة حتى فتحت مكاتب الاتحاد وأعدت طباعتها على عجل، ووزعت منها في نفس الليلة آلاف النسخ على قاعات الطعام على امتداد الجامعة، وقد سكن ذلك من غضب أحمد عثمان، كما أن ذلك أحدث بلبلة في إستراتيجية العمل السياسي لليساريين. والذين كانوا يرفضون الاعتراف بالحر المباشر، ويضربون على نغمة التمثيل النسبي. وأفضى إصدار البيان إلى حدوث ربكة في صفوفهم، كما إنهم لم يستطيعوا أن يقدموا عملاً آخر. لا من داخل الجامعة ولا من خارجها، حيث كنت لهم بالمرصاد، فماتت الجمعية. وحاولوا الانتقام لذلك بالاعتداء على شخصي، ولكني كذلك فوّت عليهم الفرصة، وذلك حينما جاءني موفدهم في غرفتي وحاول استفزازي في مناقشة استمرت لعدة ساعات ولكني تماسكت مناقشاً إلى أن أذّن الآذان فأدبر الشيطان.

ازدادت قوة الاتجاه الإسلامي في الجامعة بإطلاق سلطة مايو لكوادره المعتقلة، والتي

جاءت بخبرات السجن وحنكة السنين، وكان من هذه الكوادر عبد الرحيم علي، وحاج بابا، وجعفر ميرغني، وغيرهم. وقد وضح أن الأولية بالنسبة لهم كانت واضحة، وهي التخرج من الجامعة، إلا أنهم أسهموا في إنضاج العمل الإسلامي في الجامعة، وتوفير أسباب النجاح له، مما زاد ثقتنا في أنفسنا، فقررنا أن نبدأ مشروع المقاومة، فأصدرنا صحيفة (آخر لحظة) وكان يرأس تحريرها لفترة محمد الحسن أحمد البشير، ثم محمد النجومي وآخرون، ومع أن آخر لحظة كانت مجرد جريدة حائطية يومية إلا أنها كان لها جمهورها الذي يأتيها من أقاصي الخرطوم يبحث عن الخبر المثير والإشاعة والطرفة والتعبئة ضد النظام. لقد أصبحت الجامعة رأس الرمح في حركة المعارضة، وأصبحت أمل المعارضين وقبلة المناوئين. حيث كانت تراود الجميع أحلام أكتوبر، وأن يفعلها الطلاب مرة أخرى، ويكونون رأس الرمح في الإطاحة بالنظام.

وبينما نحن في الحلم الذي جعلنا ننصرف تماماً عن قاعات الدرس، وننكب على النشاط ومكاتب الاتحاد. متوهمين القدرة على تغيير العالم علماً، وللحقيقة فإن أجهزة الأمن كانت بنا رفيقة. والنظام كان بنا متساهلاً رغم حملاتنا وانفلاتنا، ولا زلت أذكر حينما وصلنا خبر إطلاق سراح الترابي ورفاقه: الصادق عبد الله عبد الماجد، ويسن عمر الإمام، وربيع حسن أحمد. وخلق آخرون، وقد فرحت بذلك، ولكن لصدمتي الشديدة علق أحمد عثمان مكي قائلاً: أخشى أن يفسد علينا إطلاق السراح خطة الثورة - أنا كنت أتمنى أن لا يطلقوا سراحهم الآن.

المهم ذهبنا على الفور، وقمنا بتسجيل زيارة الترابي ولم تنقطع الزيارات بعدها. حيث كنا نقضي الساعات الطويلة، إذ لم يكن هناك ثمة سامر غيرنا، إذ اعتبر الكثيرون أن الترابية ظاهرة تجاوزها التاريخ، لذا فلا عجب أن زهد فى مجلسه المتطلعون وقراء الطالع. ولا زلت أذكر مشاويرنا على الأخص برفقة أحمد صديق عمارة الذى خلف محمد على الأمين على كرسي مكتب الثانويات. لقد كانت حركة الاتجاه الإسلامي تصب فى الجامعة. وتقوم بتصريف كل ما يتعلق فى الجامعة من نشاط سياسي، فكرى، اجتماعي، تربوي. نشر دعوة ومكتب ثانويات تنحصر مهممته فى تنمية العمل الإسلامي فى المدارس الثانوية. ولم تكن العلاقة واضحة بين مكتب الثانويات وشعبة الجامعة.

مع خروج الترابي من السجن زاد الاهتمام بمكتب الطلاب عامة، وأصبح يشرف عليه ربيع حسن أحمد. وشاعت بيننا المصطلحات الجديدة التي كنا نتلقاها فى مجالس الترابي. ثم

نروح ننقح فيها ونرددها، وإن كنا لا ندري كنهها تماماً مثل التجديد والتحديث والتدين.. الخ. وما يهم لقد تم الإطاحة بي وبصديقي أحمد صديق من إدارة مكتب الثانويات. أما شخصي فقد كنت مرتاحاً للقرار، أما أحمد صديق فقد عدّ ذلك من مؤامرات الزمان، خصوصاً أن الخليفة الجديد في أمر العمل الصيفي دفع الله التوم ما كان يطلعه على المفردات. وبعد فترة سمح نظام مايو لدكتور الترابي بالمغادرة في جولة لبريطانيا، ثم حضور الاجتماع العام للطلاب المسلمين بأمريكا، وتزامن سفر دكتور الترابي مع رحلة نظمها مدير الجامعة بالتعاون مع المجلس الثقافي البريطاني للجنة اتحادنا، يبدو - وهذه حال الدنيا - أن مدير الجامعة الأستاذ مصطفى حسن كان يعتقد أن جدول أعمالنا لا يختلف عن جدول أعماله، وضع قانون للجامعة يحفظ لها شخصيتها الاعتبارية، ومكانتها العملية، ويؤمن استقلالها، لذا أراد مدير الجامعة أن تذهب لجنة الاتحاد في رحلة لتزور عدداً من الجامعات في بريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

وأظن أن بروفيسور مصطفى حسن لن يغير رأيه فينا، حينما يقرأ بأننا - وعلى الأقل شخصي - لم نكن نعرف أجندة الرحلة، ولم نطلع عليها، وبعضنا لم يذهب لكثير من الجامعات، ولم نقرأ أصلاً الأوراق التي وزعت لنا، وأننا كنا نزوغ من المشرف علينا السيد المربي علي مصطفى، لحضور اجتماعات تبحث عن كيفية تقويض النظام السياسي، وأن الانقلاب على نميري كان شغلنا الشاغل. ورتب الاجتماع الأول عثمان خالد مضوي الذي كان بمثابة الأمين العام للجبهة الوطنية، وحضر الاجتماع د. الترابي، وعثمان خالد مضوي، والمرحوم الشريف حسين الهندي، ود . عمر نور الدائم (ومجموعتنا في الاتحاد)، وأعتقد أن الاجتماع تم في دار الرعاية الاجتماعية في لندن في نهاية شارع سفن سسترز.

وفي الاجتماع قدم د. الترابي تقييمه لتطورات الأوضاع في محاولة لاستنهاض همم قادة المعارضة بالخارج، وطلبنا من الشريف حسين أن يعود للداخل لقيادة المعارضة. فأجاب المرحوم الهندي قائلاً: وما الفائدة سيتم تجميدي باعتقالي. فقلنا له: ولكن حينما تعتقل ستصير رمزاً، وكذلك يمكنك إدارة عمل المقاومة من السجن، فلحركة المقاومة امتدادها داخل إدارة السجن. وهنا تبسم الشريف قائلاً: إنّه لا يقود تنظيماً، ولا يعتبر الاتحاديين موجودين كتنظيم وإنه لا يطلب لنفسه وضعاً، وإلا فإن الملك فيصل قد جمعه

بالنميري، ووافق النميري على تخصيص وظيفة نائب رئيس له ثمناً لعودته، ولكنه أبى، وإنه يفكر ما هي الطريقة الأمثل لإسقاط النظام (محاصرة النظام وتجويع الجماهير حتى تثور). وكانت إجابتنا أن السبيل هي الحركة الشعبية المتواصلة، وأنه بالإضرابات والمظاهرات يمكن أن يستنزف النظام، وكذلك يمكن التفكير في تكوين حركة مقاومة مسلحة تقوم بالضربة النهائية.

أمّن المرحوم الهندي على هذه الفكرة، وانصرفنا بعد ذلك لمتابعة التنفيذ. كلٌّ في ثغرته. لقد كان لرحلة أوربا أثرها في نفسي، فقد اكتشفت سر عظمة أوربا الخضراء، كيف لا وقد عبرنا الريف الإنجليزي والفرنسي والسويسري والإيطالي حتى روما بالقطار، ورأينا نِعَم الله المتمثلة في الأمطار ومصادر المياه التي حولت أرض أوربا إلى حديقة عامرة، ومنبت لكل جميل وبهيج، وانتبهنا كذلك لشيوع الفساد في البر والبحر حتى تلوّث إنسان أوربا وتلوثت بيئته.

ومن إعجاز القرآن قوله سبحانه وتعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١)، وقد حار المفسرون كيف يفسد البحر، ولكن ها هو عنصر التلوث والنفايات يرينا كيف يفسد البحر. وقد كتبت في ذلك عدة مقالات في مجلة الجامعة بعنوان: مع الخواجات في بلادهم. ومن الطريف أن الشيوعيين كانوا يترصدون آرائي وأقوالي. لذا فلا عجب أن أثاروا زوبعة حينما ذكرت في معرض كلامي عن زيارتنا لمتحف اللوفر بأنني لو وجدت الجيوكندا ملقاة على الأرض لما رفعتها وما أظن رأيي قد تغير وقد خبرت أوربا ومعاهدها، وكتبت بلغاتها وصدر لي كتاب في أرضها ووصفه أحد العلماء بأنه أفضل ما قرأ في هذا المجال وسفهها آخر قائلاً بأنه لا يعدو أن يكون دعاية بروبجاندا .

وما زلت أذكر حينما كنا نتجول في متحف اللوفر والتفت إليّ المرحوم أحمد عثمان مكي قائلاً يا أخي أنا تعبت من البحلقة، فقلت له وأنا سئمت، وذكرته بأنه من الأفضل أن نزوغ إلى صديقنا مبارك آدم الذي كان يدرس في معهد الدبلوماسية حيث اتفق معنا بأن نحضر للونسة والشاي. وهكذا فررنا من اللوفر وأرجو ألا يغضب هذا أصدقائي الفرنسيين. خاصة وقد استقبلت في الشهور الأخيرة ثلاثة من المستشرقين الفرنسيين، كما أن سفير فرنسا مارسيل لوجيل زارني في مكتبي وقضى معي أكثر من ساعتين، وقد وجدته إنساناً مرحاً

ذكيا ومتواضعاً، وأرجو أن لا يكون قد وجدني متزمتاً، وقد علق قائلاً حينما قابلني: لم أكن أتصورك شاباً، كلكم شباب.

وفي تقديري أن لفرنسا فرص كبيرة لإقامة علاقات تفاهم وتكامل مع السودان، خصوصاً أن أهل فرنسا شعب حوار، والسودان قام وأقام كل بنائه على الحوار. وقد تعجب أحد أصدقائي من تنوع مشارب أصدقائي حتى كان يصفني بالنفاق والأمر أبسط من ذلك وأهون.

ثورة شعبان ومذكرتي لرئيس الجمهورية:

كان الشيوعيون يصفونني (بحسن الزي) كناية عن بهدلتي وعدم اهتمامي بمظهري، وكانوا يروّجون في جريدتهم (مساء الخير) أنني أدير الاتحاد من المسجد، وهذه تهمة لا أنفيها، وليت الشيوعيين والقائمين على أمر المشروع الإسلامي يدركون أهمية المسجد إذ يصعب تصور فلاح أو نجاح دون إصلاح حال المساجد.

فالمسجد هو بيت الأمة، وكيف كان حال المسجد كان حال الأمة، ولا جدوى من تغيير أو ثورة ثقافية لا ترتكز على المسجد. وفي تقديري أن كل كوادر المشروع الإسلامي تخرجت من تلك القاعة المهملة في داخلية القاش التي كنا نتخذها مسجداً، ففي تلك القاعة بدأت الصلوات المنتظمة وقيام الليل والكتائب والأسر وتعلم التجويد والإطلاع على كتب السلف والمؤاخاة وتعلم أبجديات التنظيم والحركة والتعرف على مغزى المشروع الإسلامي.

وإصلاح المسجد ليس المقصود منه فقط إصلاح المبنى وتنظيفه، ولو كانت فاعلية المسجد تأتي من مجرد الزينة وحسن البناء لفازت مساجد تركيا أو الخليج بذلك، ولكن المعنى أن يتولى المسجد القيادة. وأولى الجامعات التي عرفها العالم إنما كانت مساجد مثل الأزهر وجامع الزيتونة وجامع القرويين. وفي دولة سنار انطلقت الحركة الفكرية من المساجد، فهذا مسيد ود عيسى في كترانج، وذاك مسجد دنقلا العجوز. وحديثاً انطلقت حركة مدرسة العلوم الشرعية من مسجد أم درمان، وحتى انتهت إلى جامعة أم درمان الإسلامية.

ومساجدنا اليوم لا تكاد تقوم بوظائفها في النهضة والاستنهاض، والأمر يحتاج إلى مراجعة وإلى تغيير الطواقم والكوادر العاملة في المساجد، وإلى دفع قيادات الحركة الإسلامية وأساتذة الجامعات والعلماء لقيادة حركة المسجد. كيف يكن ذلك فقد انتظمت المساجد في جامعة الخرطوم، فكلية الطب التي لم يك يقبل أهلها برفع الآذان فيها قام فيها مسجد. وبورك في مبارك قسم الله، وبورك في الذين جاهدوا في رفع الآذان جيل محمد صديق علي، والحسن علي، ومحمد الحسن التكينة... الخ، وبورك في من تصدوا لإقامة مسجد شمبات جيل فتح الرحمن محمد إبراهيم... ما يهم أن غرفتي المجاورة للمسجد المفتحة الأبواب، والتي يرقبها الرايح والغادي، تظل مكتظة، توسعت معرفتي بالكوادر الجديدة للعمل الإسلامي، ومازلت أذكر عبد الوهاب الأفندي الذى كان يشد إلينا الرحال، وكان حينها في

نهاية الصف الثانوي العام، وكنت أشجعه بنشر شعره في مجلة الجامعة. كما كان يزورنا من شباب الثانويات حسين خوجلي، وعبد المنعم الخضر، وكنت أعمد إلى تعبئتهم. لذا لا عجب أن بدأت انتفاضة شعبان من مدرسة أم درمان الأهلية، والذين ورطوني حينما جاءت قيادتهم بعد المظاهرة مباشرة إليّ، وبالطبع لم أكن اعرف ماذا أفعل بشباب متحمس غير أن أقدم لهم المزيد من الكلمات والتعبئة لمزيد من البذل والعطاء.

بدأت إرهاصات شعبان بنذر المجاعة في دارفور وسرعان ما أصدرنا بياناً في الاتحاد عن المجاعة، ثم تم تكوين لجنة لزيارة دارفور لعمل مسح ميداني عن المجاعة. وكانت اللجنة برئاستي وعضوية الأخ التجاني سراج، والمرحوم حسن سعد الدين، وربما كان لنا رابع ولكني لا أتذكره.

المهم تحركنا بالطائرة التي أخذتنا إلى الفاشر، حيث قابلنا محافظ الإقليم حينها الأستاذ محمود حسين، ثم بالطائرة إلى الجنينة، وكانت هذه المرة الأولى التي أتعرف فيها على دارفور، وقد دهشت لوجود الجنائن والبساتين في الجنينة، كنت أعتقد أن الجنائن وقف على أهل الشمال. ومع أن الجفاف كان قد ضرب شمال دارفور إلا إن الجنينة كانت بها المياه السطحية في متناول الراغبين، حيث يكفي لتدفق المياه حفر حفرة صغيرة على سطح الأرض.

وعلى أطراف الجنينة يربض قصر سلاطين دار مساليت (آل تاج الدين) الذي يشرف ويكشف كل منطقة الجنينة، والذي يحكي كيف قاوم المساليت حيناً من الدهر الزحف الفرنسي القادم من تشاد وغرب إفريقيا حتى سقط منهم الشهيد تلو الشهيد. ثم اضطروا إلى مهادنتهم بعد أن عز النصير ويا لضيعة تاريخ السودان، إذ أن أفضل كتاب قرأته في تاريخ سلطنة دار مساليت كتبته كاتبة إنجليزية، ولم يقع في يدي عمل لمثقف سوداني يحيط بتاريخ هذه المنطقة.

لم يكلفنا كشف عورة الجنينة كثير جهد، فما إن جاوزنا مطار الجنينة حتى طالعنا منظر الذين يلتقطون في نبات الحميض، أطفال وشيوخ وشباب هدهم الجوع فجعلهم يبدون كفروع الأشجار الضامرة، وتصل المأساة إلى ذروتها في حوض وادي كجا على مطالع الجنينة، حيث تكدست الجموع التي كانت تنتظر الموت، والتي لم يك بينها طفل – إذ مات الأطفال – وما زلت أذكر تلك المرأة التي خلصت إلى القضية قائلة: منتظرين

يومنا، وحينها تذكرت قول سيدنا علي لو كان الفقر رجلاً لقتلته. ماذا نفعل ونحن مجرد طلاب غلابة وجدنا أنفسنا نصارع في نظام عسكري تسنده دولة شقيقة، نظام مهيمن ومتمكن من كل أجهزة الدولة.

عدنا في المساء بعد الجولة. وكان كما يبدو السيد مفتش الحكومة المحلية قد اعتاد على هذه الأجواء والموت والدفن اللائق والمزري، وقد استضافنا المدير في الاستراحة، وأعد لنا وفريقه حفل عشاء أحمر، ولكن أصابتهم الدهشة حينما أخبرناهم بأننا لا نشرب. والأولى إسعافنا بمستلزمات الصلاة. وهنا اتفقنا على حل وسط، حيث يتم سحب كل آنية الخمر فنتناول العشاء ثم ننصرف كل فريق إلى شأنه.

وذكرتني المائدة الحمراء بحادث مشابه وقع لنا في بريطانيا، حيث كان ضمن البرنامج زيارة أحد كبار الموظفين الإنجليز، وبالفعل كان الرجل بنا رفيقاً، وطاف بنا في تاريخ السودان، وفي نهاية المقابلة قام ابنه بإحضار زجاجة خمر معتقة ضخمة احتفاء بزيارتنا، ولكنا أخبرناه بأننا لا نشرب، وقد احمرّ وجه مضيفنا ولم يصدق أن نرفض مثل هذه الهدية، وقال إن كل أصدقائه من السودانيين من محبي الخمر وله معهم قصص وصولات، فأخبرناه أن الوضع قد تغير عما كان عليه في أيامه وأننا نمثل بالفعل قيادة طلاب كلية غردون التي بناها جيلهم. ولكن كما يخرج الحي من الميت، فها هي كلية غردون تتمخض عن قيادة إسلامية. اكفهر وجه مضيفنا، ولم نحب أن نزيد من آلامه ونزلزله أكثر من ذلك وهو يشهد تصدع بناء ستين عاماً من جهد الإدارة البريطانية.

نعود للمجاعة، عدنا للخرطوم وطبعنا تقريرنا على عجل، وكانت طباعة التقرير في غاية الرداءة، ولكن مع ذلك حملناه أنا وأحمد عثمان مكي إلى وزير الإعلام حينها المرحوم الأستاذ عمر الحاج موسى والذي اهتم بالأمر خصوصاً أن الصور التي التقطناها كانت ترسم صورة واضحة للمأساة، ومع أن الحكومة جندت طاقاتها للقضاء على المجاعة إلا أننا اخترنا أن نعمل على محورين هما:

(١) مواصلة الاتصال بسلطة مايو ورموزها حتى نصيبهم بالعمى فلا يعرفوا حقيقة نوايانا في تحريك هذه القضية.

(٢) الاتصال بطلاب دارفور في الجامعة وتحريكهم. وكان طلاب دارفور رهن الإشارة فهم معبئون ويقودهم صديقنا فاروق أحمد آدم، وكان تقديرنا أن تحريك قضية دارفور

ومجاعتها سيؤدي إلى زلزال حتى وسط القوات المسلحة التي فيها وجود مقدر من أهل دارفور.

لم تكن رابطة دارفور في حاجة إلى تعبئة، فما لبثوا أن تحركوا في موضوع المجاعة. وكانوا أصحاب أول تحرك داخل الجامعة تبلور في مظاهرة صاخبة عبأت الشارع والعمق الجماهيري في اتجاه نوايانا المبيتة.

ولكن كانت هناك بوادر أزمة داخل صف الاتحاد، خصوصاً أنه يقوم عبر تحالف بين الاتجاه الإسلامي وشباب الجبهة الوطنية والإفريقية (أساسه حزب الأمة والطلاب الجنوبيين تحت راية «ANF»)، وكان شباب الجبهة الوطنية الإفريقية مؤيدين لسلطة مايو نسبة لإنجازها لاتفاقية أديس أبابا التي جلبت السلام في الجنوب، وكان ثمن تحالفنا معهم باهظاً إذ أجبرونا على تأييد فحوى الاتفاقية، ولازلت أذكر جلسة المجلس الأربعيني التي اتخذ فيها ذلك القرار، وقد أحسن الطلاب الجنوبيون إعداد صفهم. وامتلأت القاعة بهم، بل وجاءوا بوفد يمثل طلاب الجنوب في شرق إفريقيا لحضور الاجتماع. ولم يك أمامنا إلا الوصول لحل وسط، حيث وافقنا على اتفاقية الحكم الذاتي. وأبدينا عدم التزامنا بأي شروط سرية قد تكون محجوبة. وما يهم شعرنا بأن تحالفنا مع طلاب الجبهة الإفريقية ليس له فرص استمرارية، ولا زلت أذكر حين تقدمنا لقيادة الصف الطلابي في مواكب، وفي بدايتها انسحب ممثلو الرابطة الإفريقية، ووقف سايمون الحاج - وكان يشغل منصب سكرتارية الشئون الخارجية - ولا يدري أين يقف؟؟ مع رفاق الرحلة الطويلة والإنجازات والخبرات؟ أم مع الالتزام التنظيمي، وأخيراً انتصر داعي الالتزام التنظيمي وخرج إلى صف الجبهة الإفريقية .

لم يكن الإعداد لشعبان سهلاً، إذ كان الأمر يتطلب تنسيقاً داخلياً وخارجياً مع قوة المعارضة. ولعل أحمد عثمان كانت له حساباته، فقرر أن يتزوج قبل بداية الحركة. ولعله أراد بذلك أن يستشهد وهو متزوج، لأننا كنا نعلم ما يعني مغبة التحرك لإسقاط النظام في قوانين ثورة مايو. وقد توافق زواج أحمد عثمان مع زواج تاج السر مصطفى. وسبقهم على الزواج إلياس علي كرم الله، توافقت هذه الزيجات مع نهضة في حركة المرأة المسلمة داخل الجامعة، والتي أشرف على إدارة مكتبها - حينها - الأخ عوض الجاز. ولم يكن الزى الإسلامي قد انتشر، ولعل أول طالبة تدثرت بهذا الزي هي الأخت المرحومة الطالبة

حينها بكلية الصيدلة علوية بن عوف، والتي تزوجها الأخ المرحوم المهندس فتح الرحمن تاج السر، وأحسب أن المعاناة التي وجدتها ستصب في ميزان حسناتها، والحمد لله كل جيل الزي الإسلامي مدين لعلوية، وما يهم تركني أحمد عثمان في رئاسة الاتحاد وذهب ليكمل مشروع زواجه، وتوكلت على الله وأصدرت أول بيان ووقعته باسم أحمد عثمان معلناً بداية الثورة وأن يكون الطلاب جاهزين، وأن هذا العام هو عام الحسم (أسلوب الرئيس السادات) وأنه آخر عام في عمر النظام. وقبل أن يطبع البيان اطلع عليه الأخ فتحي خليل، وأعاد تنقيحه ليكون أكثر قوة.

كان للبيان صداه، وعلى الأخص وسط الاتحاديين الذين طالبوا بإعادة طباعته المرة تلو الأخرى ثم اتصل بي مندوبهم عبد المنعم الطاهر طالباً أن ألتقي بهم، وفعلاً أخذني بسيارته وأخذت معي الأخ تاج الدين الشريف، حيث التقينا في بيت أحد الاتحاديين، وتعرفت هناك على الزين الجريفاوي، وحاج مضوي، وعمر حضرة ومحي الدين عثمان، وربما آخرين. ثم تكلمت عن خطتنا وقلت لهم إننا في طريقنا لتوريطهم في عمل سياسي ضخم. وهم إما أن يثبتوا أو يتحركوا أو يفسحوا المجال لغيرهم، وقد وجدناهم متحمسين، وسألونا عن دورهم فحددناه لهم مدنا بالمتحدثين للمشاركة في ندوات التعبئة، فاقترحوا حاج مضوي. والمرحوم أحمد زين العابدين الخارج من السجن لتوه، ومن الاجتماع خرج الاتحاديون إلى السيد الصادق المهدي والترابي، ولم يكونوا يعرفون أن الترابي كان على معرفة بكل ما يدور.

ما يهم عاد المرحوم أحمد عثمان من الزواج إلى قيادة الاتحاد وطباعة المنشورات. وأراحني بذلك من عبء ثقيل، حيث انحصرت مهمتي في الإعداد للندوات، ومازلت أذكر ندوات كلية القانون، وكان من المتحدثين المحامي المرحوم أحمد خير، والمرحوم جعفر محمد علي بخيت. وجعفر شيخ إدريس، ولكنني لما لمحت د. زكريا بشير إمام، وكان قادماً لتوه من أمريكا. أومأت لمحمد الحسن الأمين الذين كان يدير الجلسة، وطلبت منه أن يقدم زكريا بشير بعد أن تأكدت من موافقته، وحينما تقدم زكريا للمنصة قال ما لم يكن في الحسبان، حيث طالب بأن يوقف الاتحاد هذه الندوات لأنها مضيعة للوقت، وأن يتحرك الطلاب فوراً وينزلوا الشارع لإسقاط النظام، وكان يتحدث بين هتاف الطلاب وصراخهم الذي كان يصم الآذان. وسار أحمد خير على نفس الوتيرة، وكذلك جعفر شيخ إدريس، ولازلت أذكر أن الطلاب كادوا أن يفتكوا بالمرحوم جعفر بخيت ورفعوا عربته عدة مرات إلى فوق ثم أعادوها، وذلك رغم ضماننتنا لسلامته أمام المرحوم عمر الحاج موسى.

وفي اليوم الثاني جاءني إسماعيل الحاج موسى ثائراً ومحتجاً على ما حدث للمرحوم جعفر بخيت، وكرر لي بأن هذا الأمر غير معقول وأنه ليس هنا حوار يمكن أن يتم تحت الإرهاب والإثارة، فقلت له كلمات طيبات، لأنني كنت مشغولاً بالإعداد للندوة قبل الأخيرة والتي تحدث فيها على ما أعتقد د. بهاء الدين حنفي، وحاج مضوي، وممثل حزب الأمة. ولكن ما يهم فقد فقدت السيطرة على المايكروفون، ووصل الطلاب في حماسهم إلى درجة الهستيريا، وكان لسان حالهم: إلى الشارع لقد شبعنا تعبئة. وهنا قلت لهم ستكون هذه الندوة قبل الأخيرة للتحرك، وما يزال المؤاخذون يؤاخذونني على أنني كشفت سر الثورة، لأنه مع كلامي هذا دبج مهدي مصطفى الهادي بياناً ملتهباً ضد المعارضة التى تحرك الطلاب، مما دعا بعض الطلاب للخروج في مظاهرة ليلية للرد على البيان قادها كما هو متوقع محمد عثمان محجوب - وكنت حينها مرهقاً فاستسلمت للنوم، وجاءني الأخ فتحي السيد ينزف دماً يطلب مني أن ألحق محمد عثمان محجوب الذي بدا فعلاً في تحريك الثورة، وبصعوبة تداركت وانتزعت المايكروفون .

وبعد قليل صعد إلى غرفتي علي عثمان محمد طه وكان قد أصبح قاضياً، ثم عبد الرحيم محمد حسين الذي أدمن المجيء للجامعة، وعرّفنا على عثمان يوسف، رئيس الاتحاد لطلاب المعهد الفني، وأحمد عثمان مكي الذي كرهت مساكنته لأن زائريه ما كانوا ينقطعون طوال اليوم، يرفعون قضاياهم التي لا معنى لها، ولن أنسى أبداً ذلك الطالب المريض بمرض عصبي، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً وأحمد عثمان يستمع باهتمام لهمهمته، وأنا أتقلب على سريري منتظراً من أحمد أن يحسم الأمر، ولكن أحمد استمر في متابعة سماع همهمة الطالب لاستخلاص شيء منها حتى أذن آذان الصبح، وكنت قد نمت دقيقة ولم أستفد من حديثهما فكرة واحدة - وبعد الصلاة نظر إليّ أحمد باسماً: هل عندك مذكرة تاريخ؟ فقد كان اليوم امتحان في التاريخ لي وله، فلم أنظر إليه وإنما لبست على عجل ملابسي متجهاً إلى قاعة الامتحانات، وأخذت أجمع في قواي المهدودة، وحينما لم يبق إلا خمس دقائق من فتح القاعة أقبل أحمد عثمان قائلاً تصور لم أقرأ أي شيء وحاولت أن أنام فلم أنجح. ولما كنت غاضباً نادباً حظي الذي جمعني في غرفة واحدة مع أحمد ناولته المذكرات لأنني كنت أريد أن أتخلص منها فقد أزف وقت الامتحان.

ويا للعجب خيّب أحمد ظني وأخذ الأوراق ليقرأ فيها، لم أنظر إليه ودخلت القاعة،

وكان الامتحان امتحان تاريخ قديم لا تنفع فيه الاجتهادات والثقافة الخاصة. وبعد ثلث ساعة من معالجتي لطلاسم الامتحان أقبل أحمد عثمان يتلمس طريقه ونظرت إليه ولسان حالي يقول: (خم وصر)، وحينما ظهرت النتيجة نجح أحمد ورسبت!.

ونعود إلى حديث شعبان، حيث ازدحم ممر غرفتي بقيادات الاتحادات على مستوى العاصمة، وهم يحثون الخطى لنقل كل حركة شعبان إلى يوم الغد قبل أسبوع من تاريخها المحدد، إذ بعد تقويم سريع اتضح أن الحكومة ستضرب الضربة الأولى وتعتقل القيادات وتصبح الحركة بلا قيادة أو رأس. لقد تم اعتقال د. الترابي، وصادق عبد الله عبد الماجد. ويس عمر الإمام، أي باختصار كل رموز الحركة الإسلامية. وكان لنا لقاء أخير بدكتور الترابي قبل اعتقاله، وذلك حينما جاءنا فيصل خضر مكي قائلاً: إن الصادق المهدي يرجو لقاءنا. وعلينا أن ننتظره بالقرب من بوابة عبد القيوم، وذهبنا فى الوقت المحدد شخصي. وأحمد عثمان، وفيصل، وفجأة جاءت عربة تاكسي ووقفت بجانبنا، وحقيقة لم أنتبه للعربة إلا بعد لكزة، فقد كنت في وادي آخر. دلفنا إلى العربة، وفي الداخل كان على عجلة القيادة السيد الصادق المهدي، وعلى المقعد الأمامي الآخر د. الترابي. وعلق أحمد عثمان أغرب (تاكسي). وانطلقت العربة أمامنا، ولم أستسغ ما يجري، إذ أن العربة قديمة، ويمكن أن تتعطل عند أي إشارة مرور، كما أن الصادق المهدي لم يكن متعوداً على مثل هذا النوع من العربات. ولا زلت أذكر محاولته مع الكلتش المستعصي. المهم انطلق بنا التاكسي حتى الفضاء الكائن خلف كلية التربية، حيث اطلع السيد الصادق على خطة الثورة على صعيد التحرك الطلابي والنقابي. والتحرك العام وبعدها سألت عن الموقف في الجيش،فنظر الجميع بعضهم إلى بعض. ولما لم تكن هناك إجابة فقد انتهى اللقاء، وعدنا إلى مواقعنا.

في أصعب المواقف، لا تفارقني كراهيتي للاجتماعات، وبالفعل فقد نظرت إلى القوم الذين كانوا مشغولين بتحريك كل حركة الثورة (طلابية، نقابية، عامة، منشورات) إلى يوم الغد، وقلت لهم هل كتبتم المذكرة المرفوعة لرئيس الجمهورية، وكانت الإجابة لا. فأمسكت بالقلم، وفي حدود ثلاث دقائق كتبت المذكرة ووافقوا عليها، ثم تمددت في سرير مقابل ونمت ولم أصحُ إلا وقت الأذان، ووجدت رفاقي في جلستهم التى تركتهم عليها ليعودوا لمواصلة اجتماعهم بعد الصلاة، أما شخصي فقد كان مقتنعاً بعد أن يلعلع الرصاص والقنابل المسيلة للدموع - حالما تندلع الأحداث - فسينسى الجميع مقررات هذا الاجتماع. المهم لبست

بنطالي الأثير ولا أدري إن كان لي غيره، وسألتهم إن كان ثمة من تكليف؟ فقالوا صديقك المدير بروفيسور مصطفى حسن.

وحقيقة لقد تعمقت أواصر الود بيني وبروفيسور مصطفى حسن، وكان مهموماً بالجامعة وتطويرها، ودفع الحركة العلمية بها وتحسين ظروف الأساتذة والطلاب. وصياغة قانون الجامعة، ولكن حقيقة لم تكن كل هذه المجهودات تعني بالنسبة لنا شيئاً. لقد كانت أجندتنا باختصار مختلفة. لقد كان د. مصطفى حريصاً على إشراكنا في أمور الجامعة، وكنا نجتهد على ألا نخيب ظنه. ولكن قد جاء اليوم وتقدمت مجموعتي إلى مكتب مدير الجامعة، وأخذت معي فيصل خضر وفي الطريق مررت بدكتور ناصر السيد. وكان في غاية الانتشاء والانفعال، ولكني تحاشيت أن ألفت نظره، لأنني أعلم علم اليقين أنه لو عرف أن مقصدي هو مكتب د. مصطفى حسن لنشكره ونطيّب خاطره ونودّعه. لامتعض لذلك ولقال: (هو مصطفى ذاتو المقعّدو في المكتب شنو؟ جرّو جيبو خلوه يظاهر معانا).

دلفت إلى مكتب د. مصطفى فقابلني وعن يمينه المرحوم محمد عمر بشير قائلاً عملتوها؟ قلت له: جئنا لنشكرك ونقول لك نحن ممتنون على كل ما فعلته للجامعة، ولكن قدر الله و أمره وخيار الشعب هو كما ترى، ومددنا أيادينا وكان موقفنا صعباً عليه وعلينا ولكني ختمته بأن تقدمت للحاق ببدايات تجمع ذلك الموكب الرهيب.

لقد أربك تقديم الحركة أسبوعاً سياق تنظيمها، إذ كان حسب التخطيط أن تتواكب المظاهرات مع إضراب السكة الحديد الذي كان يقوده المجاهد موسى متي في عطبرة. وإضراب مجموعة النقل الميكانيكي الذي يقوده سليمان سعيد وعبد الرحمن السيد. وإضراب الصناعات الغذائية الذي سيقوده صالح عبد الرحمن، وإضراب النسيج السوداني. وعبد الرحمن البخيت، وإضراب المخازن والمهمات، وقد نسيت أدوار وأسماء عشرات النقابيين الذين عاهدونا على تحريك نقاباتهم واتحاداتهم.

أما الطلاب فلم يقصّروا إذ كانوا معبئين وجاهزين، فها هو حافظ جمعة سهل مع حسن عثمان رزق يتقدمون صفوف طلاب معهد المعلمين حينها للالتحاق بالجمع وعبد القادر الفادني من الجامعة الإسلامية، وعثمان يوسف من المعهد الفني وألقى أحمد عثمان مكي كلمته والتي كانت بمثابة (مانفيستو ثورة) حشد فيها كل معاني القصور والأسباب الداعية للتحرك للإطاحة بالنظام، ولم يسمع الآلاف ماذا كان يقول ود المكي لأنهم كانوا في شوق

صوفي للالتحام بالشارع، وكانوا يعتقدون أن الشارع في شوق شديد ليقودهم وأن الشارع لا ينتظر إلا رأي القائد. وسار الموكب الرهيب الذي كنا نعتقد أنه لن تقوم للسلطة بعدها قائمة، وأن الحلم يتحقق، والثورة الشعبية تتقدم، والدولة الإسلامية في طريقها لأن تنهض بمظاهرة.

اجتاز الطلاب المندفعون الحواجز الأولى التى أقامتها الشرطة وكان هتافهم: (إلى القصر حتى النصر)، واندفعنا .. لم نكن نعلم من هو القائد ومن المقود، أعضاء الاتحاد أنفسهم تحولوا لمجرد ذرات متشابهة في مكونات الحشد، لقد ذكر لى الأخ مصطفى عثمان أنه مع آخرين كانوا مسئولين عن حراستي - ما أصعب مهمتهم - حاول المرحوم محمد عثمان محجوب وآخرون أن يرفعونني على أكتافهم حتى أهتف لهم بأهازيج الثورة، ونزلت لأنني لا أحسن فن قيادة الجماهير، فأنا أستطيع أن أخطط، أن أفكر، أن أنظم، أما أن أقود هتافاً فهذا شيء آخر.

وحينما التفّ الطلاب حول القصر برزت الأزمة، إذ أخذ الطلاب المتحمسون يقتربون من القصر المحاط بالعساكر المدججة بالسلاح، والمدربة على التعامل في مثل هذه المواقف. وحينها دار رأسي إذ أظنني وحدي كنت قد احتفظت بعقلي، ففكرت في أنه أقل من ثواني ستحدث المجزرة، فالطلاب يتوقون مساقين لانتحار جماعي، أم إنها شهادة جماعية.

وفجأة تحرك الجنود وصوّبوا بنادقهم إلى أعلى، وفجأة دوى صوت الانفجار الرهيب. وتعالت سحب الدخان، ثم بدأ التسابق والاندفاع والجري العشوائي - ما أعجب المثقفون - حاولت أن أتبين ما حدث، فاستحال الأمر عليّ، أدركت أنه ما عليك إلا أن تأخذ بأخلاق القطيع وتجري راكضاً، إلى أين؟؟ لا تدري. المهم أن تمارس الركض وإلا داستك الجموع وأصبحت مجرد ضحية.

يتعطل العقل وتقودك غريزة الابتعاد عن الخطر. وتحولنا بعد قليل إلى مظاهرة صغيرة، تستجدى الجماهير أن تنضم إليها، ولم نك في حالة وعي بأن الجماهير ربما تكون متعاطفة - ولكن هل بيننا وبين هذه الجماهير صلة أو حسب؟ أم هي علاقة مثل الذي خرج يبحث عن دواء المريض في المستشفى، أو الذي شد حقائبه للمطار في سفر فأخذناه عند ذلك، أم التاجر الذي خرج يبحث عن رزق يومه فاضطر لإغلاق متجره، أما الذي عاند فكان مصيره النهب.

ورغم شعاراتنا (ثورة ثورة لا تخريب) فقد بدا تنظيم الأخوان الخاص عمله في حرق أكشاك توتو كورة - هؤلاء الشباب هل هم مخربون أم إنهم يمارسون ذرى التغيير السامقة وعقيدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟.

الجماهير كلما اقتربنا منها ابتعدت عنا، وأخذت تركض نحو البصات بغريزة الابتعاد عن الخطر، وعن الجو الملو ث بالغازات المسيلة للدموع، ومن لا يركض إما تعرض لجلد الشرطة، أو للاعتقال العشوائي.

فالجماهير كانت تجري هنا وهناك، ونحن نهتف: لن يحكمنا الأمن القومي. والشيوعيون أرادوا التميز فكانوا يهتفون: لن يحكمنا البنك الدولي، وتوالت المظاهرات دون جدوى، أخلت الطرقات، وأصبح سوق الخرطوم فخاً لاصطياد المتسكعين والمشردين وكذلك الثائرين، كانت عربات الشرطة لا تفرق بينهم فكلهم خارجون عن القانون .

وحينما ارتفعت الشمس في كبد السماء - كما يقول الأدباء - هدت قواي وأضناني التعب، وشعرت بأنني غير راغب في ممارسة المزيد من رياضة الركض، فتوجهت إلى مسجد الخرطوم الكبير وصليت العصر ثم توسدت حذائي تحت رأسي ومارست هوايتي التي طالما مارستها فى مسجد البركس، نمت وتذكرت قول الشاعر:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وبعد قليل أيقظني أحد الطلاب وقد غربت الشمس قائلاً سقط منا شهيد، والخطة أن نتجمع في المستشفى نحاول أن نستخلص الجثمان ثم نحرك به الشارع.

وتجمعنا في المستشفى، ودارت معركة رهيبة بيننا وبين الشرطة، وتحولت المستشفى إلى ساحة للركض والركض المعاكس والغاز المسيل للدموع، ولا أدري ماذا كنا سنفعل بالجثمان لو حصلنا عليه، إذ حينها كانت الساعة الثانية صباحاً، ولم يكن عددنا ليزيد عن الأربعين - ولكنا واصلنا سياسة الكر والفر إلى أن تم اعتقالنا الواحد تلو الآخر إلى زنازين الأمن. وبما أن القوم كانوا يعرفونني فلم يتعبوا أنفسهم حتى بمساءلتي عن اسمي وإنما اكتفوا بإرسالي إلى سجن كوبر، إلى زنازين البحريات، وتلك قصة طويلة بدأت فيها رحلة السجن الأولى التي امتدت تسعة أشهر.

السجن ومحاكمتي، وورقة د. الترابي التي أعادته إلى السجن:

أهل السودان على أخلاق الفطرة، وأخلاق أهل السودان كنز ثمين ما ينبغي أن نفرط فيه، وحينما ساح السودانيون في العالم واضطرتهم الظروف للهجرة والاغتراب اكتشفوا ذلك، فكثير من بيوت السودان قامت على إيواء المهاجرين وخدمة الضيوف وإطعام الطعام. (والسلام عليكم) تأشيرة دخول كافية في كثير من بيوت أهل السودان في باديته وريفه. وسلوك السودانيين في إكرام الضيف ومحبة الزائر الغريب ليس مجرد تراث يحكى. كما هو عن حاتم الطائي، ولكنه أمر شاخص ماثل للعيان، اذهب إن شئت أم ضواً بان، أو ود الفادني، أو طيبة عبد الباقي .. الخ.

السجن وهمّ البداية:

وهذه الأخلاق مازال يتشبع بها أهل السودان، ولا زلت أذكر أننا نزلنا بغداد (شخصي. وعبد الجليل الكاروري)، فقابلنا سوداني لم يكن يعرفنا، ولم يسمع بكلينا من قبل، فأنزلنا في الفندق، وخصص لنا عربة، ودفع كل تكاليف إقامتنا إلى أن عدنا قافلين، وقد نسيت اسم هذا الشخص، ولكن عسى أن يكون شيخ الكاروري ما يزال يحتفظ باسمه، هذه الأخلاق ذكرتني بما لقيته من معاملة في زنازين الأمن في اعتقالي الأول والثاني والحمد لله، لقد أكرم أهل السودان في عهد الإنقاذ بصفوة من رجال الأمن.

لقد سوّدنا الصحائف في الجامعة في الكلام عن الأمن وامتهانه لحقوق الإنسان، وإهداره للقيم، حتى حسب الطلاب أن رجال الأمن من غير جنس البشر، ولكن حينما اعتقلنا ووضعتنا الأقدار بين أياديهم، بل وتحت قبضتهم وجدنا رجالاً طيبين، وبالنسبة لي لم يرهقوني في يومي الأول حتى بمساءلتي عن اسمي فقد كان معظمهم يعرفني، وفى الساعات الأولى من الصباح أخرجوني من الزنزانة إلى عربة صالون، حيث كان السائق ومعه آخر في المقعد الأمامي ثم توسطت آخرين في المقعد الخلفي.

ولما كنت متمكناً من أدب الفتنة، حيث قرأت كل أفاعيل الاستخبارات المصرية مع الأخوان المسلمين، وكنت واعياً بمضامين كتابات مثل: أقسمت أن أروي وغيرها، فقد حسبت أن القوم في طريقهم إلى مختبر من مختبرات التعذيب، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولكن انطلقت العربة عبر طرق الخرطوم الخاوية فى ذلك الوقت المبكر من الصباح، ثم اعتلت كبري بري، ثم دلفت

إلى سجن كوبر، وهناك كنت أرصد كل شيء، فتحت البوابة، ثم باب آخر إلى مكتب ضابط السجن المناوب، الذى سلمني بدوره إلى سجّان قام بتفتيشي خفيفاً. ولاحظت أنه يحمل كومة مفاتيح، وطلب مني أن أتبعه حيث فتح باباً بواحد من المفاتيح يشرف على ممر. فيما بعد عرفت أن هذه (زنازين الشرقيات)، وانتهيت إلى باب آخر فتحه ونفذ منه إلى ممر آخر يطل على غرفة المشنقة، ثم تجاوزنا ذلك إلى باب آخر فتحه وطلب مني أدخل فدخلت. ثم قام بإغلاق الباب.

نظرت حولي ثم تقدمت، يا ترى في أي عالم أنا؟ مع القتلة أم مع اللصوص؟ وكانت الشمس حينها قد برزت معلنة بدء يوم جديد، تقدمت فإذا بي أرى كوكبة من البشر. سلمت عليهم واحداً بعد الآخر، ولم يكن منهم من يعرفني، وقدمت لهم نفسي. فعرّفوني أنهم من الشيوعيين، وقالوا لي بأن معهم كذلك يس عمر الإمام، والمرحوم محمود برات. وحاج مضوي، فحمدت الله وتنفست الصعداء، ثم ما لبث أن أقبل ثلاثتهم. والتفّ حولي القوم يسألونني عن الأخبار، ومسار الثورة، وحكيت للقوم ما عندي، وأعتقد أن واحداً منهم - لعله يسن - تكرم فأعطاني قميصاً ثم ذكرني بأنهم سيعطونني بعد يوم أو يومين نمرة. وهي بطانية وقطعة برش وأنه يمكنني أن أختار أي زنزانة شئت، ثم سألني يسن إن كان علي الحاج قد اعتقل، فأجبت بالنفي، ثم سألني عن الصادق المهدي وهل حرك الأنصار؟؟ ..الخ.

وما لبست الأيام أن دارت فتعودنا على السجن، وعرفنا أننا في زنازين البحريات. الزنازين التي يستقبل فيها المحكوم عليهم بالإعدام، وأن الشرقيات تضم نخبة وعلى رأسهم صادق عبد الله عبد الماجد، وأن الترابي موجود، إما بالكرنتينات أو المدرسة لا أدري. فكوبر مقسمة إلى بضعة عشر قسماً، وفي المعاملة يوجد المرتزق الألماني الشهير اشتاينر ومعه عدد من الشيوعيين الذين شاركوا فى حركة يوليو ١٩٧١م، وكان يشرف على قسمنا سجّان طيب حلو الحديث اسمه أحمد رابح، وكان يطل علينا وهو يحمل مفاتيحه ثلاث أو أربع مرات في اليوم، في الصباح الباكر حيث كنا نجلس كل خمس أشخاص مع بعض. وذلك للعدد (إحصاء الصباح)، ثم يعود بعده بجردل مليء بما يمكن أن نسميه تجاوزاً الفول. ثم آخر به حصتنا من الجراية لكل اليوم، وهي نوع من القراصة السميكة المصنوعة من الذرة، ثم بجردل ملاح في الظهيرة، ثم لا يعود أحمد رابح إلا لعمل إحصاء نهاية اليوم في الخامسة ثم لا نراه إلا صبيحة اليوم الآخر.

وما لبث أن تكامل جمعنا في البحريات، فها هو عثمان يوسف الذي ظل مواظباً في الصلاة على الرسول (ﷺ) حتى أكرمه الله سبحانه وتعالى برؤيته في نهار رمضان. وأفتى يس عمر الإمام بأنه لا يشك في أنها ليلة القدر. وها هو الشهيد الحافظ جمعة سهل الذي يفيض صوته الجميل على الزنازين بالقرآن الكريم كل صباح وظهره. وهذا المرحوم عثمان جاد الله العابد الذي يبدأ يومه في الثانية صباحاً. وها نحن نستقبل الأخ يوسف فضل الله قرشي، والذي أصبح أميراً علينا، يقوم بأداء المهام بجسارة. كما باشر تعليم من يرغب علم التجويد.

ودارت الأيام وامتلأ السجن بالمحامين المعتقلين وعلى رأسهم ميرغني النصري. وعابدين إسماعيل، وبوب، وعمر عبد العاطي. والسياسيون أمثال عبد الحميد صالح. وأحمد زين العابدين، ومبارك الفاضل شداد. والمهنيون من أطباء ومهندسين وزراعيين. والنقابيون والطلاب.

تصاعدت بعدنا نذر الثورة، وكان الجميع يحلمون بأكتوبر آخر، وفاض سجن كوبر بالمعتقلين. ولكن لم يزلزل ذلك نظام نميري، ولم يتحرك الجيش ليحسم الأمر. ورغم ذلك فقد كان لثورة شعبان آثار بعيدة المدى على مستقبل السودان السياسي، إذ أدت إلى تجميع جميع ألوان الطيف السياسي في السودان في مكان واحد، مما أدى إلى حركة تعارف وتفاهم واسعة بين مختلف ألوان الطيف السياسي، مثلت أول حركة شعبية ضد نظام مايو. والذي كان في حالة سكر، فهو النظام الذي أطاح برأس إمام الأنصار، ورأس إمام الشيوعية. والتفّت حوله الجماهير. فكانت حركة شعبان حركة تأديبية عرت النظام وزلزلت شعبيته.

أعطت حركة شعبان المعارضة وزناً خارجياً، مما مكنها من عقد اتفاقية تدريب واستضافة لحركة المقاومة في ليبيا، كما فتحت الحركة باب الأمل بإمكانية القضاء على نظام مايو. مكنت ظروف السجن من الانفتاح على الفكر الإسلامي والتعرف على قضايا وتحديات حركة الصحوة الإسلامية، كما بدأنا أول ملامسة من أمهات الكتب وكتب الأصول وحفظ القرآن. ويبدو أنه لولا السجن ما كان يمكن أن تطال أيادينا هذه الكتب إلا أن نتوسدها في قبورنا.

بعد أسابيع هدأت الأحوال وعادت الحياة سيرتها الأولي، وطلبت للتحقيق. وحقق معي إبراهيم جلال، ولعله كان مقدماً أو عقيداً لا أدري، وقد كان مهذباً غاية التهذيب، والغريب أنه لم يسألني عن شعبان وخلفياتها وعن من يقف وراءها، ولم يلامس أي سؤال كنت أحسبه سيتعرض له.

لا أريد شيئاً:

وإنما سألني عن أحوالنا في الزنازين، فأجبت أنها خير حال. وهل تطلب تحسين شيء؟ فأجبت بالنفي. وهل أطلب زيارة من أهلي؟ أجبت بالنفي. ولقد رأيت علامات الاستغراب على وجه إبراهيم ولم أكن متصنعاً في إجاباتي، فقد أحببت السجن وما وفره من جو، ولم أكن راغباً في زيارة أو مطالبة، ولقد أحسست بالارتياح على وجه قومندان السجن حينها، حيث لم أشتكِ أو أتبرم، وانتهت المقالة عند هذا الحد، ثم طُلبت مرة أخرى للتحقيق في الأمن، ولم يكن هناك جديد، ثم أخذت لأظهر كشاهد في محاكمتي حاج مضوي ود. زكريا بشير الإمام، حيث حكم على الأول بعام والثاني بعامين - على ما أعتقد - وكانت سلامة كبيرة لأن التهم الموجهة إليهم كانت تضعهما في دائرة الإعدام.

لم تكن زنازين الإعدام مريحة، ففي بعضها توالدت الفئران التي كانت تناوش النيام ليلاً، وتحاول أن تسكت جوعها، وكانت كثيراً ما تلعق أصابع أرجل يس عمر الأمام. كما كانت بعض الزنازين فائرة لا تجعلك تنام على استقامة، ولما كنت مهملاً وغير مكترث، فقد كانت زنزانتي من هذا الصنف، ولم أغيّرها، مما سبب لي آلاماً في الظهر، ثم ما لبث أن تطورت إلى انزلاق غضروفي، مما استدعى نقلي إلى مستشفى السجن، وكان المستشفى عامراً بالسياسيين: د. الترابي، أحمد خير، مأمون شرفي... الخ. وبعد أيام تم تفريغ المستشفى حين أعيد معظم السياسيين إلى الأقسام وبقيت وحدي في المستشفى. ثم ما لبث الحال أن تغير حيث امتلأ المستشفى مرة أخرى بمعتقلين جدد من السياسيين. وأصبحنا في الغرفة الأولى ثلاثة: شخصي، والمرحوم أحمد زين العابدين، والمرحوم مبارك الفاضل شداد. أما في العنبر والغرفة الكبيرة الأخرى فهناك المرحوم عبد الرحمن النور، والمرحوم زيادة أرباب والذي كان يكثر من لعن نميري، والمرحوم أبو حسبو، والمرحوم بشير محمد سعيد، والمرحوم الأستاذ أحمد خير، والعميد معاش المرحوم عثمان حسين. عبد الحميد صالح، وآخرون نسيتهم.

وإن كنت أنسى فلن أنسى أنني أصبحت الإمام والمؤذن لهذه المجموعة، وفي اليوم الأول لحضورهم وبعد أن أديت بهم صلاة المغرب لم أتردد في أن أصفّهم على الطريقة السنية بين مهمهم ومحتج، وبعد أن انتهت الصلاة حدثتهم بالانتظار قليلاً لسماع موعظة، وحينما فرغت من أداء النافلة فوجئت بأن جماعتي كانوا على كامل استعدادهم للموعظة.

ولكن حضر بعضهم بـ(كدوساتهم)، وجلسوا على أطراف البرش للتحديق في الواعظ

وتقويم الموعظة، بينما كان الدخان يتصاعد، وحارس السجن نفسه من حائطه العالي أخذ يرقب هذا التجمع، أما أنا فقد مضيت في موعظتي والتي كانت عن الموت، والذي لم يكن ينتظره أحد، فقد يخطف الموت بعضنا ولا يدري كيف ستكون الخاتمة. قريبة أم بعيدة؟ وسواء كانت قريبة أم بعيدة فهي حتما قادمة: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨) يا لسخرية الأقدار!! وما تغني البروج والحصون من عزرائيل ملك الموت، وحينها ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٨).

دارت الأسابيع فالشهور. وأخيراً أخذ المعتقل يخلو، فحسب قانون أمن الدولة أن المدة القصوى للحبس ثلاثة أشهر قابلة للتجديد لثلاثة أشهر أخرى وعشرة أيام. فتم بعد حين إفراغ السجن من كل المعتقلين، حتى د. الترابي والصادق المهدي، ولم يبق سوانا: شخصي. وأحمد صديق عمارة، وسيد عمر كمبال، وعثمان يوسف، وفيصل خضر مكي، ومكي يوسف. وحقيقة فقد كنت غير راغب في الخروج من السجن، وماذا عندي في الخارج؟ المتجر فهمت أنه تحت التصفية.. الوالدة رجعت إلى مسقط رأسها في الشمالية (منصوركتي- ارتموقة) للعناية بجنائنها ومواصلة الحياة وسط أهلها.. أشقائي الآخرون تخرّج من تخرّج وعمل. كما أنني بدأت مشروعاً لحفظ القرآن الكريم، وقد وصلت الجزء الثامن عشر أو السابع عشر لا أدري، وكنت أسأل الله في سجودي إلا أخرج من السجن حتى أكمل حفظ القرآن. ولكن لم يكن هذا رأي رفقائي، وذات يوم استدعيت إلى القاضي الذي يشرف على ملف التحقيق في قضيتنا - نسيت اسمه الآن - وكان كريماً ودوداً، وبعد السلام ذكر لي بأنهم كلما أرادوا أن يرفعوا ملف التحقيق لنميري للعفو تجددت المظاهرات، والتي كان آخرها الاعتصام الشهير والذي برزت فيه بطولات ومشاهد، وانتقلت إلينا أسماء الذين قادوا الاعتصام، وبروز طائفة جديدة من الخطباء مثل التجاني عبد القادر، وابن عمر محمد أحمد، وغازي عتباني الذي اقتحم على الشرطة التي تطوّق الجامعة بناقلة محملة بالرغيف عن طريق النيل.. الخ. والتي من المؤكد كانت ترفد السجن بزيادات، أما أحمد عثمان مكي فقد أصبح شخصية أسطورية في صولاته وجولاته وإفلاته من رجال الأمن.

ما يهم أنني ذكرت للقاضي بأنني متورط، وأقر بدوري في هذه القضية، وغير مستعجل على الخروج، ولكني رجوته أن يعمل على إطلاق سراح من لا علاقة لهم بالقضية. فتمتم قائلاً

سيتم الإفراج عنكم جميعاً. ولما لاحظ أنني غير مقتنع بكلامه قال لي: هل تحب أن تكلم المدعي العام؟ وكان حينها المرحوم عبد المنعم مصطفى، قلت لا بأس، وهنا أدار الهاتف وكلمت الرجل الذي كان كذلك ودوداً وذكر لي بأنه سيرفع الملف لنميري للعفو.

عدت للقسم، وكان قد انضم إلينا كوكبة من حملة القرآن الذين اعتقلوا في معية شيخ إبراهيم بتوتي، وكان من بينهم فتح الرحمن تاج السر، والعاقب سليمان، ودهب. ولم أكلف نفسي بإخبارهم بما حدث، فحينما سألوني قلت لهم تحقيقاً لا معنى له والسلام. وانطلق كل واحد إلى ما هو فيه. ولم يخلُ جو السجن من توترات، ولقد ذاق الشيوعيون الأمرين. إذ ضربت عليهم العزلة، إذ كان الجميع يعتبرونهم مسئولين عن ما حدث لهم بتمكينهم لسلطة مايو، وتصفيتهم للإمام الهادي المهدي، وتنكيلهم بخصومهم. وأذكر ذات يوم أن طلبني د. زكريا بشير في ظلام الليل لمشاورات، وحدثني أن الشيوعيين قد استفزوه. وأنهم يجهزون اليوم لحفل بمناسبة مرور ألف يوم على اعتقالهم، وكان يرى أن لا يقوم هذا الحفل، وناقشته بأن الناس أحرار في السجن، ولكنه ما لبث حينما يئس مني أن دبر أمراً مع سيد عمر كمبال.

وما إن بدأ الحفل حتى رأيت مجموعتي تنقض على الشيوعيين ضرباً وركلاً. وقد استطعت أن أحجز مجموعتي بشق الأنفس، لأنني كنت الوحيد العاقل وسط قوم يحبون الجهاد حتى في السجن، وبينما كان بعض الشيوعيين يصرخ (هو البيقتل شيوعي حيروح الجنة..؟) كانت المجموعة الأخرى تردد تكبيرات زكريا بشير، وكانت هذه المشكلة سوط عذاب على الشيوعيين، حيث قامت إدارة السجن بتوزيع بعضهم إلى مناطق قصية في السودان، وذات يوم وبينما كنت مشغولاً في حفظي إذ جاءت رؤيا الشيخ إبراهيم. إذ قال لي يوماً: سيطلق سراحكم اليوم وأريد منك أن تذهب إلى بيتي بهذه الوصية، قلت: يا شيخ إبراهيم ماذا أصابك؟ فقال: إني رأيت رؤيا ورأيت فيها خمستكم خارجون من السجن. لم أهتم ونسيت موضوع شيخ إبراهيم ورؤياه، ولكن ما إن حانت صلاة العصر حتى جاء الشاويش المناوب بوريقة تصدرها اسمي ثم أسماء رفقائي وقال (أجمعوا حاجاتكم إلى بيوتكم).

لم أكن فرحاً، لقد انقطع برنامجي، كما لم تكن ظروف ما بعد السجن واضحة. فزملائي في حالة اختفاء، والوضع السياسي راكد. ولكن ما يهم أني حملت أشيائي

وودعت القوم، وكان أهل السجن كرماء إذ أعطونا دراهم كافية لتبلغنا إلى نهايات مسارنا. وكانت خاتمة مساري أم بدة حيث منزل خالي وأحد أشقائي، وهناك وبعد الاستقبال ومداولة قصيرة تقرر أن أسافر إلى الشمال (قنتي) لمقابلة الوالدة، وتوكلت على الله. وعزمت على السفر، ولكن كان لي أن أبحث عن أماكن رفاق الدرب، وبواسطة الأخ محمد خيري فقيري - والذي أصبح مسئولاً عن الأخوات - تعرفت إلى ابن عمر وآخرين. وكانوا محبوسين في منزل الرجل المسلم الطيب المرحوم محمد الشاذروان الذي طالما أسهم في إيوائنا ومساندتنا في تلك المرحلة الصعبة، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يثيبه على ذلك، وأن يثيب زوجته التقية التي ما ترددت أبداً في إيواء الأخوان المشردين على صغر منزلهم حينها بالمزاد.

كنت منذ صغري أكره سفر الشمال على الشاحنة، حيث يصل الإنسان متسخاً ومتعباً. هذا إن لم تصب (الشاحنة) بمكروه يحبسك في الخلاء الأيام ذات العدد، ولن أنسى رحلتي تلك للشمالية، فقد جئت متأخراً لموقف الشاحنات الذي لا أطيقه، ووجدت آخر شاحنة ولم يكن فيها موضع قدم، ولكنني تسلقت، وبما أنني لا أحب أن أكون عبئاً على الآخرين فقد انزويت في ركن متدحرج من الشاحنة ممسكاً بالحبال، وهكذا انتهيت على هذه الحال إلى أن وصلت (قنتي) حيث أحاط بي الأهل كأنني في عرس حتى (ارتموقة) محط الوالدة.

وفي اليوم الثاني شرع الأهل في إقامة كرامة ومولد، ولما كنت قد تأثرت شيئاً ما بعقلية الحنابلة فقد ظللت مشغولاً بقضية سنية المولد، وحينما حان موعد المولد أبديت عدم ارتياحي، وقلت للقوم إنني أفضل قراءة القرآن، وأجابني أحد أخوالي بلطف وكياسة أنه ليس في القوم قارئ، وأن تحصيل القوم المدائح والمولد. المهم لم يكن أمامي إلا المشاركة ثم العشاء. ولكن ما هي إلا أيام حتى أصابني الملل حيث لم يكن هناك برنامج لاستيعابي. كما كنت زاهداً تماماً في أي اشتغال بالزراعة، لذا فقد استأذنت الوالدة في المجيء للخرطوم للبحث في أمر الدراسة، ولما كانت الحجة مقنعة فقد وافقت على الفور مزودة إياي بمبلغ طيب من المال يغنيني لفترة عن الآخرين.

وما إن وصلت الخرطوم حتى فوجئت براديو أم درمان يخصص جزءاً من النشرة لقائمة المطلوب القبض عليهم استعداداً لفتح الجامعة، وكالعادة كان اسمي في الصدارة مشفوعاً بأسماء قيادات الاتحاد والاتجاه الإسلامي، والتي ظلت تعمل من تحت الأرض، وبلغت ذروة مقاومتها تشغيلها لإذاعة سرية تم تهريبها من كلية الهندسة بجامعة الخرطوم. وظلت هذه

الإذاعة تنتقل من مكان إلى آخر إلى أن أصبح هناك استحالة في تشغيلها. كما ظهرت أسماء المطلوب القبض عليهم في الصحف كذلك.

محنة جديدة:

بالنسبة لي كان ذلك الظرف من الظروف الضاغطة العصيبة، إذ كنت أولاً غير راغب في الذهاب لمنازل أقاربي حتى لا أدخلهم في تجربة إيواء هارب من القانون، خصوصاً أنه ليس لي رصيد علاقات اجتماعية مع أهلي يؤهلني لطلب تبعات الحماية. كما أنني لا أريد أن أذهب إلى منزل المرحوم الشاذروان في قبضة جماعة الخاص، الذين سيكتمون أنفاسي، ويقيدونني بتجربة الانتظار في غرفة صغيرة وما أقسى الانتظار. إذ هو امتحان حقيقي لتكوين الإنسان وصلابة تكوينه الداخلي، والناس يتفاوت تكوينهم الداخلي. فمنهم هش التكوين، ومنهم الصلب، ومنهم من هو في منزلة بين المنزلتين. والمواقف الصعبة والابتلاءات تكشف مدى مقدرات الإنسان إذ الصبر ثبات، باعث الدين أمام باعث الضغوط الداخلية والخارجية. انتهى بي التجوال إلى منزل الأخ يوسف فضل الله قرشي. والذي استقبلني بصدر رحب، وأصبحت عضواً في منزل أسرتهم ببيت المال، مما خفف عني الكثير مما كنت أجد في وقت لم يكن فيه ثمة أنيس يشجعنا على ما نحن فيه.

ولكن ما إن اقترب يوم فتح الجامعة حتى فاجأنا النميري بأمر العفو والذي طال الجميع بما فيهم أحمد عثمان مكي، والذي فشلت الأجهزة الأمنية في وضع يدها عليه ولمدة عام كامل.

عدت للجامعة وسكنت في مخزن في الطابق الثاني بداخلية القاش، وقد آثرت المخزن لأنه يتيح خلوة لا تتيحها الغرف، ولكن ما إن انصرمت بضعة أيام حتى تبددت أجواء الخلوة، إذ خرج أحمد عثمان من مخبئه ليشاركني السكن في ذلك المخزن الكئيب. ولما كان الجو جو امتحانات فقد كانت إدارة الجامعة حريصة على إنفاذ العام الدراسي، ورغم ذلك فلم تكن تنقطع سيول الزائرين والمجتمعين.

انتهت الامتحانات بضغوطها، وتخرج أحمد عثمان، وأصبح شخصي الفقير في الصف النهائي بكلية الآداب، وقد حرصت هذه المرة على متابعة المحاضرات، ولم أكن راغباً أبداً في العمل العام وعمل الاتحاد، ولكن قيادة التنظيم أصرت على أن تعم القائمة بأسمائنا. وقد فاز الاتجاه الإسلامي كالعادة في الانتخابات، وأصبح بشير آدم رحمة الله رئيساً للاتحاد. ونسيت مدير المجلس الأربعيني هل هو التجاني سراج؟

ما يهم أني ركزت على الدراسة، وتعرفت على د. إبراهيم أحمد عمر والذي أصبح مدرساً لفلسفة العلوم، ومع أني طورت علاقاتي مع د. إبراهيم منزلاً ومكتباً، فقد تحاشيت الدخول معه في أية علاقات أكاديمية، اخترت الفلسفة السياسية مع الأستاذ الإنجليزي (ميللر) والذي كان يدرسني في مكتبه، حيث كنت الطالب الوحيد الذي اختار هذه المادة. ودارت الأيام دورتها، ولم يعكر الجو إلا ورقة كتبها د. الترابي بعنوان (نحو حركة إسلامية جامعة).

وأنزلت هذه الورقة للشُّعب لمناقشتها، وكانت عبارة عن تصوّر لمحاولة إيجاد كيان جامع يستوعب القوى الإسلامية في السودان: حديثها وقديمها، وهدفت الورقة إلى ربط الحركة الإسلامية المنهكة بمشروع يقيلها مما هي فيه، وكذلك جاء المشروع رداً على محاولات السيد الصادق المهدي، والذي أبعد النجعة في تقديمه لمقترح شبه علماني كميثاق للجبهة الوطنية. والتي كانت في أزمة حقيقية نتيجة لإصرار السيد الصادق المهدي على إدخال مصطلحات اشتراكية وديمقراطية وتخفيف إسلامية الميثاق.

سربت ورقة نحو حركة إسلامية جامعة بملحقاتها إلى الأجهزة الأمنية، ولم يكن من الصعب على أجهزة الأمن اكتشاف أسلوب الترابي وطريقة تفكيره الواضحة في الورقة، مما دعا أجهزة الأمن للقيام بحركة اعتقالات جديدة شملت د. الترابي، يس عمر الإمام، محمد محمد صادق الكاروري، توفيق طه، أحمد عثمان مكي، توفيق صالح. وحمدت الله أنني فلتّ هذه المرة ولم أكن أدري ما كان يخبئه القدر من تدبير. فحينما اقتربت مواعيد امتحانات الجامعة والتي كانت لها أهمية خاصة، فهي امتحانات التخرج وطي صحاف مرحلة الطلابية وما فيها من مباهج ومتاهات ولم أكن وحدي في الامتحانات، وإنما كذلك العائلة التي كانت تنتظر وكأنها في امتحان معي، ومضت الامتحانات بهدوء من ورقة إلى ورقة إلى أن أكملت امتحانات ثماني أوراق من أصل عشر.

الانقلاب قصير العمر:

ذات صباح من أيام سبتمبر خرجتُ ألتمس كوب شاي من بوفيه امتداد القاش، والذي كان يديره صديقي المرحوم عبد القادر حتى أجدد نشاطي وأنصرف إلى المطالعة حتى أنتهي من العبء الثقيل الذي أسموه الامتحانات والتي تعتمد على نوع رخيص من التفكير، إذ أساس الامتحان الذاكرة.

ما يهم ما إن أخذت موقعي أمام البوفيه حتى برز أمامي الأخ بابكر موسى قائلاً: سمعت

بالانقلاب؟ قلت له (انقلاب؟ انقلاب في رأسك) أردف بابكر مقاطعاً: والله الإذاعة منذ الصباح مارشات عسكرية، وتأكدت من الخبر، وعلى الفور تقمصتني روحي القديمة. واستبدلت ملابسي، واستلفت من المرحوم عبد القادر خمسين قرشاً، وأخذت تاكسي إلى منزل إبراهيم أحمد عمر وسألته عن الانقلاب، وأكد لي ضلوع الجبهة في الانقلاب. وأن الانقلاب حسب معلوماته مؤيد بلوائين، ولم أكن أعرف ماذا يعني لواء في الاصطلاح العسكري.

وقبل أن أكمل الكلام والاستفهام أقبل أحمد عثمان مكي، حيث فهمت منه أن عباس برشم قد اقتحم السجن وحررهم، وأن بقيتهم بمنزل توفيق صالح. وفجأة سمعت جلبة وبرزت عدة ناقلات عسكرية متجهة إلى الإذاعة، وحسبت أن هذه القوى متجهة لدعم الانقلابيين. علماً بأنه لولا الإثارة كان يمكنني أن أرى أن القوة يقودها الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم، وقائد الجيش حينها بشير محمد علي، وما هي إلا دقائق معدودات حتى امتلأ الجو بأصداء تبادل الرصاص ثم صوت الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم.

وهنا لم ألتفت حتى لوداع رفقائي وإنما أخذت أول تاكسي وطلبت منه أن يتوجه نحو الجامعة، وقبل أن يأخذ التاكسي مساره لفت نظري أشخاص في حالة هرولة تبينت بينهم ابن عمر محمد أحمد وكانوا قادمين من الإذاعة، وانطلق بنا التاكسي ولم ينبس بكلمة حتى حاسبناه أمام الجامعة، ودلف كل منا على داخليته. ولم أكن بالطبع أتصور أن هذا الانقلاب الفاشل الذي قاده المقدم المرحوم حسن حسين والشهيد عباس برشم سيكلفني عامين من الحبس ما بين كوبر ودبك.

انقلاب حسن حسين، وأيام السجن في كوبر ودبك:

المواقف الصعبة تكشف معادن الرجال، وقد قال الرسول ﷺ (إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة). والضعف الإنساني يجوز على المؤمنين كما يجوز على الكافرين والمنافقين، وصفات الشجاعة والإقدام والثبات صفات إنسانية لا أدري أهي مكتسبة أم يجبل الخلق عليها جبلاً، فهذه قضية فلسفية شائكة.

ولكن من المؤكد أن الإيمان يكسب الإنسان قدرات خارقة على الثبات، ويجعله يطور إمكانياته النفسية والفكرية على تثبيت باعث المقاومة والصمود إزاء باعث الضغط الخارجي. ويمكن تسمية هذه القدرة بالصبر، والصبر مثل الإيمان يجعل الإنسان يتحرر من الخوف. ولقد وردت كلمة الصبر قرابة الاثنين وثلاثين مرة بعد المائة في القرآن الكريم. وقد عرفت في السجن نماذج للرجال الصابرين، أمثال شيخنا الأستاذ أحمد زين العابدين، يس عمر الإمام وبالطبع د. حسن الترابي. وقد ساكنت هذا المجتمع في الزنازين والأقسام، فما رأيتهم لانوا، ولا زلت أذكر حينما أضرب كل السجناء عن الطعام بتحريض من الشيوعيين، ولكننا وحدنا رفضنا الامتثال لذلك حينما بلغنا أن د. الترابي يأكل مما يجود به عليه سبحانه من جراية أو خبز أو طبخ دون مطالبة بتحسين أو ملاحظة لمزيد (تشوين).

ومن الشباب الذين تأثرت بتماسكهم مطرف صديق، وشقيقه علي صديق، ومحمد محي الدين الجميعابي، وسليمان صديق، ويوسف فضل الله، وهذه مجرد نماذج فالجميع كان كذلك. وكانوا يعطون عطاءً إنسانياً صادقاً قوامه الصبر والصدق والتضحية. لقد جاءت أحداث انقلاب حسن حسين بالنسبة لي في وقت محرج، حيث كنت متأهباً لأداء الامتحان ومغادرة الجامعة. كما كان بالنسبة لي مفاجأة تماماً، إذ كنت مستغرقاً في المراجعة والاستذكار. ولم تأتينا من قيادة التنظيم أية إشارة استنفار أو استعداد كما يحدث عادة في مثل هذه المواقف. كما أن العام الدراسي نفسه كان هادئاً ومستقراً ومكّن من تنفيذ موسم ثقافي جيد الإتقان. وأعتقد كانت الدورة دورة التجاني عبد القادر، أو بشير آدم رحمة، وكان السكرتير الثقافي هو سيد الخطيب. وعاونه على أمر الموسم الثقافي عبد المحمود نور الدائم الذي عرف الحركة الإسلامية في السودان بحركة النهضة التونسية، إذ أنه تمكن من دعوة نفر كريم من شمال إفريقيا جاءوا للسودان كان من بينهم الأستاذ راشد الغنوشي وصلاح الجورش (صحافي

ومفكر تونسي) وعمار الطالبي المدير الحالي للجامعة الإسلامية بالجزائر، وعمر بهاء الدين الأميري (شاعر ومفكر إسلامي سوري يعيش في المغرب) وآخرون. وكانت السلطة متفاوته في أمر الموسم الذي بدأ في أكتوبر ٧٤ وخاطب الموسم د. الترابي وآخرون.

ما يهم كان انقلاب حسن حسين مباغتاً ليس للنميري فقط ولكن لكثير من كوادر الحركة الإسلامية رغم صلاتنا بمعظم قيادات الحركة. لقد كان من محركي الانقلاب المرحوم الشهيد عباس برشم وكان صديقنا وسكرتيراً لاتحادنا في دورة شعبان. وكان كذلك من قادته (القاضي الهارب) كما كان يسمونه الأخ عبد الرحمن إدريس. والذي رغماً عن تحفظه في علاقاته معنا فقد عرفناه أخاً وطالباً في كلية الشريعة، بالإضافة إلى الرموز السياسية الأخرى التي عرفناها وخالطناها. ولذلك ربما كان من الصعب على أجهزة الأمن - حينها - أن تصدق أن مجموعتنا - وعلى الأقل شخصي - لم يكن ضالعاً في هذه الحركة.

المهم توكلت على الله، وكان اليوم يوم جمعة، وعدت للجامعة متماسكاً ولكن كذلك متأثراً وجريحاً - كنت كالطائر المهيض الجناح - المكسور النفس - هل أختفي؟ أم أواصل الاستعداد للامتحانات؟ ولم يكن من المقبول مراجعة القيادة التنظيمية في تلك اللحظات، ما يهم حضرت صلاة الجمعة ولم أدر ماذا قال الإمام، ولم أكن واعياً بأن يوم السبت سيكون فاتحة رمضان. وفي المساء حاولت مراجعة بعض الكتب ولكن دون جدوى. ثم علمت أن التلفزيون أخذ يبث برنامجاً عن وجود أسلحة في مخازن الجامعة - ومن يسكن مخزناً غيري - وأن الانقلاب قد تم التخطيط والتنفيذ له من داخل الجامعة، وأن مظاهرات عفوية قد خرجت من الجامعة للترحيب بالانقلابيين، خصوصاً حينما عبر عباس برشم شارع الجامعة إلى كوبر ممتطياً دبابة، ومع كل هذه الحرب النفسية التي كانت مقدمة لعمل ضد الاتجاه الإسلامي في الجامعة فقد نمت أحسن ما يكون النوم. وفي صبيحة السبت وبعد أداء الصلاة نمت كذلك ولم أستيقظ إلا على الجنود الذين أخذوا يفتشون الجامعة غرفة غرفة. لقد أحاط الجيش منذ الصباح الباكر بالجامعة، وسد النوافذ والمخارج، ولم تسفر الحملة عن شيء، وسرعان ما انتهى التفتيش.

هنا قلت وداعاً للامتحانات، ووداعاً لكتبي وغرفتي. وقابلت التجاني عبد القادر الذي كان إما رئيس الاتحاد أو مسئول الاتجاه الإسلامي، وقلت له: إنها المجابهة، ووافقني،

واتفقنا في نصف دقيقة على تسيير مظاهرة لمكتب المدير مطالبة إياه بالاستقالة، ووعدته بكتابة المذكرة، وأن أقوم بالاتصال بعدد من العمداء وكبار الأساتذة حاثاً إياهم على مشروع استقالة جماعية بحجة انتهاك حرمات الحرم الجامعي والاعتداء على استقلال الجامعة وشخصيتها الاعتبارية.

وخرجت من الجامعة سيراً على الأقدام، فلقيت الأستاذ محمود عبد الله الذي كان مشرفاً على شؤون الطلاب وفهمته الحادث ووعد بالتجاوب، ثم لقيت الأستاذ محجوب عبيد والذي كان عميداً لكلية العلوم فقال لي لا داعي لأن أشغل نفسي بالاتصالات، وأنه سيقوم بذلك وإن كان يعتقد أن النظام سيقيلهم قبل أن يستقيلوا، وعدت وعلمت أن المنشور قد طبع ووزع، وأن المظاهرة تحركت وأحاطت بمكتب د. عبد الله الطيب مدير الجامعة. والذي كان ثائراً وغاضباً، لذا لم يتردد في أن يخاطب الطلاب ثم استقال بعد ذلك.

أما شخصي فقد خرجت من الجامعة، ثم من حافلة إلى حافلة إلى أن انتهيت إلى أم بدة منزل الخال محمد عبدون، والذي كان يساكنه كذلك شقيقي إبراهيم، ولما كان اليوم فاتحة رمضان فقد أفطرت معهم، ثم خرجت من المنزل دون أن أعلمهم بمقصودي، إذ شعرت بوخز الضمير. وعدت للجامعة وما إن نزلت من عربة الطرحة - وكانت الطرحة حينها بثلاثة قروش من الخرطوم إلى الجامعة وتختار الشارع الذي تشاء شارع الجمهورية أو شارع الجامعة - وما إن فتحت باب التاكسي وحاسبت السائق حتى طوقتني أيادي بمسدساتها. وإلى عربة مدنية لأبدأ رحلة أخرى مع أصحابي الذين خبرتهم وعرفتهم.

وكان القوم كريمين معي، فمن الزنزانة إلى كوبر دون أن أُسأل حتى عن اسمي. وبعد الإجراءات الروتينية التي حفظناها عن ظهر قلب فُتحت الأبواب، وكنت أعتقد أنني في طريقي كالعادة إلى زنازين البحريات الكئيبة - زنازين المنتظرين للإعدام - ولكن فاجأني السجان حينما فتح باب الشرقيات ودفعني للداخل، وكانت المرة الأولى التي أدخل فيها هذه الزنازين التي حسبتها أشد كآبة من الأخريات، وما إن دخلت حتى رأيت جموعاً كثر (منبطحين) على الأرض صامتين، وهي تحاول النوم في الفسحة الضيقة المحصورة بين صفين من الزنازين. أثناء طوافي بالبصر لأتبين الملامح إذا بكفٍّ على خدي الشمال. ونظرت وإذا بالأستاذ المرحوم أحمد خير خارج من الحمام وهو يبتسم معلقاً (خلاص جابوك يا غلبان، ما عندك حيلة) وانطلق لحاله.

مسحت بنظري صف المنبطحين عساي أن أجد أنيساً يفسح لي جواره، تلفتُّ حتى وجدت

صبري متمثلاً في وجهٍ تحيط به لحية مستديرة، ولما كنت أعرف أن القلوب قد جعلها الله سكناً لأصحابها بادرته بالتحية، ثم أردفت: لقد وجه نميري خطاباً صبّ فيه لعناته على كبار موظفي الخدمة المدنية ووعد بتأديبهم وإلزامهم الجادة. هنا صرخ أنيسي قائلاً (أنا أول واحد)، وصعقت لأنني لم أكن أريد أن أنقل خبراً سيئاً لحبيس في منتصف الليل – فيكفي ما هو فيه – إذ قصدت أن أجعلها مفتاحاً لشبر من الأرض أنام عليه.

عرّفني محدثي بأنه إبراهيم الصلحي وكيل وزارة الثقافة، وواصل ولم أكن في حاجة لمواصلته، لأنني كنت أعرف القصة، إذ هو ابن عم المرحوم حسن حسين، ولما أعلن حسن حسين بيانه جاء إليه رجال الأمن ليخرج لهم عربات مزودة بمكبرات الصوت فرفض. مما عرّضه لاعتداء رجال الأمن ثم السجن.

نمت وأصبح لي بعد حين حيز في ممر الشرقيات، وتتالى المعتقلون د. إبراهيم أحمد عمر، د. شادول، د. حسين أيوب. وحينما ضاقت بروادها تم توزيعنا إلى المدرسة، وحينما حملت عفشي ماراً بالسراية (قسم من أقسام كوبر) لمحت باب الذل، وهو باب صغير أسماه المرحوم محمود برات بباب الذل، وكنا كثيراً إذا ما أردنا أن نخرج لزيارات أهلنا ننحني حتى نكاد نلاصق الأرض لنخرج من هذا الباب، الذي لا يتجاوز طوله المتر. ووجدنا أن د. الترابي كان يرفض الخروج من هذا الباب حتى لو أدى ذلك لحرمانه من مقابلة أهله، أما شيخنا الأستاذ محمد يوسف فكان يتعلل بأنه مصاب بانزلاق قضروفي ولا يمكنه الانحناء، أما المرحوم محمود برات فكان يكفكف جلبابه منحنياً ولكنه يلحق ذلك بكلمات من جنس (والله طالما أنا في أياديكم أكان حفرتوا لي نفق أدخل فيه، ولكن أكان ربنا نصرنا عليكم إلا أخليكم تمشوا على بطونكم) ولم يكن يأبه لا لحراس السجن ولا لرجال الأمن – رحمه الله –.

المهم نُقلنا لقسم المدرسة، وهو مدرسة في التعذيب النفسي والبدني، ففي هذه القسم الذي كان مهجوراً تكاثر البعوض بصورة أسطورية، وأصبحت أجسامنا من لسعاته كالجلد المدبوغ، إذ تجد جسمك في لحظة ترعى فيه مئات البعوض، ولكننا نجحنا بعد أقل من أسبوع من إبادة البعوض بحرقه، وكان وقود المحرقة البطاطين والشبابيك. ويبدو أن إدارة السجن لما شعرت بانتصارنا أرادت أن تفسد علينا بهجة الانتصار، وإذا بنا ذات يوم وبينما كنا نحاول إعداد كوب شاي كسحور، – وكان وقود ذاك الكوب أحد الشبابيك التي كسرها

الطيب عبد الرحيم - إذا بالصفارة تضرب ويطلب منا الجلوس خمسة خمسة. وظننت في بادئ الأمر أننا سنعاقب بالضرب على جريمة كسر الشباك، ولكن الأمر كان أكبر من ذلك. إذ قام الرقيب المناوب بتلاوة أسمائنا، وكالعادة كان اسمي على رأس القائمة. ثم صفّونا وطلبوا منا أخذ متاعنا والخروج.. إلى أين؟ وهل من متاع؟.

وودعنا من لم يشملهم أمر الخروج، وكان على رأسهم عمر حضرة، وذهبنا وأخذنا نهتف ونبدد سكون الليل (الله أكبر ولله الحمد) وكنا نريد أن نشعر من هم في الأقسام الأخرى بما يدبر ضدنا، كما لم يكن هنا من مفر أن نفر إلى الله، والفرار إلى الله انتصار ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الذاريات: ٥٠).

ومع هول الموقف، فقد أخذت أضحك حينما رأيت بعضاً ممن جمعهم معنا السجن - وكانوا دائماً مشاترين ويعتقدون أن حظهم العاثر أوقعهم معنا - مزلزل الفؤاد. مما عرضهم للسقوط في مجاري مياه السجن، وما هي إلا دقائق حتى تم صفنا في كوامر جاهزة. ثم تحركت الكوامر من كوبر شمالاً.. إلى أين؟ لسنا ندري.

وأخذ التكبير مرة أخرى يشق عنان السماء مبدداً سكون الليل، ولا أدري هل أيقظ كل ذلك التكبير أحد سكان الخرطوم؟ أم إنه تبدد في الظلمات كصرخة في واد؟ ما يهم أن ذكر الله في المواقف الصعبة من سمات المؤمنين، ومن المؤكد أن تكبيرات المظلومين التي انطلقت من الحناجر المستضعفة اليابسة أسهمت في ري شجرة الإنقاذ الطيبة. وما إن خرجت الكوامر من منطقة الخرطوم بحري واعتدلت في مسارها على شارع المعونة حتى همس في أذني المرحوم السيد صلاح الصديق المهدي قائلاً (إننا في طريقنا إلى دبك) ووقعت كلمة دبك في ذهني (ربك) فقلت ولكن ربك إلى الجنوب ونحن نتجه شمالاً. فعاد متمتماً (دبك.. دبك) ويبدو أن السجانين الذين كانوا يحترمونه كحفيد للإمام المهدي أخبروه بالوجهة، وكانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة (دبك).

وما إن فلق الصباح وانكشف الكون حتى انتهينا إلى منتهانا، إلى معسكر دبك الجميل الذي تحيطه الأشجار، ولكنه في النهاية سجن، والسجن من أوحش ما عرفت البشرية من الاكتشافات، وصدق نبي الله يوسف إذ قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ (يوسف: ١٠٠) وموسى كذلك: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٢١).

وتكامل جمعنا في معسكر دبك، نحن الطلاب المشاغبون، وكان غالب ممن ضمهم المعسكر الإسلاميين وبعض الشيوعيين وأعضاء الجبهة الوطنية. وسرعان ما تحول المعسكر إلى بيت قرآن تتصاعد فيها أنغام التلاوة. وأخذ جمعنا يتبارى في حفظ القرآن. أمين حسن عمر، محمد كبير، عبيد ختم، سليمان صديق، يوسف فضل الله، د. بكري عثمان سعيد. وأصبح فاروق أحمد آدم أميراً لجمعنا، ولكن انشغاله بالإمارة جعله آخرنا حفظاً، ولم يلحق بالركب إلا حينما وضع في الحبس الانفرادي في جريمة تهريب بولاد والتجاني عبد القادر من السجن، والتي سنتعرض لها لاحقاً. وأكرم الله الذين صمدوا في المعسكر زهاء العامين وخرجوا حفظة لكتاب الله، وكان عدد هؤلاء ٣٤ من أصل ٣٧ قضوا زهاء العامين، وإن كان قد مر على المعسكر المئات ولكنهم كانوا يقضون فترات محدودة ثم يودعوننا. وهناك حدثان يطرقان الذاكرة في هذه الفترة. أولهما حينما ابتلع الهدام (تيار المياه الذي يأكل الشاطئ) حمامات وسور السجن، وقع المشهد أمام أعيننا حيث كان البعض يلعب في الورق والبعض يتسامر والبعض يحفظ، وفجأة رأينا صف الحمامات يتمايل ويتأرجح ثم تغوص جميعها مع السور، ووجمنا لدقائق ثم انفجرنا ضاحكين. وانتبه المرحوم صلاح الصديق المهدي قائلاً: الأمر ليس بالهزل قد تكون هناك مصيبة. وفهمنا قصده إذ كان يعني ماذا لو كان واحد منا في الحمامات، وتجمعنا خمسة أشخاص خمسة أشخاص كما كنا نصطف، ووجدنا أنفسنا تمام والحمد لله.

أما شخصي فقد بدأ لي الأمر رومانسياً إذ كشف لنا السور عن النيل الفائض في مساره التاريخي نحو مصر، كما إنه لأول مرة منذ سنة ينداح بصرنا إلى ما شاء الله له من الانداياح متأملاً، ولكن ما هي إلا سويعات حتى جاء السجانون وصفونا صفاً لنعاود التكبير والتهليل استعداداً لرحلة العودة لكوبر. حيث قضينا عدة أسابيع. وكنا بالطبع فرحين بالعودة لكوبر لأننا كنا في شبه منفي عن الناس وأخبار السياسة وملاقاة المعتقلين. وحسبنا أننا سنظل في كوبر ولكن فجأة جاءنا الخبر بأنه تم إصلاح دبك وعلينا أن نتجهز للعودة والعود أحمد.

الأمر الثاني أننا كنا نتابع حركة المقاومة، وكانت أخبار مقاومة الطلاب لحضور نميري احتفالات اليوبيل الفضي بإنشاء كلية الطب تصلنا، وكيف تم إفساد الاحتفال. كما تم اعتقال قرابة المائة طالب من كلية الطب وغيرها، ألحق بعضهم بنا في دبك، مما زاد

من حركة التعارف والتجنيد، حيث انضم العشرات للحركة الإسلامية. وبالطبع كان هؤلاء الطلاب مصدر سلوى وأمل، حيث كنا نعرف أن عوائلهم ستضغط من أجل إطلاق سراحهم. خصوصاً أن بعضهم أبناء ذوات وعوائل معروفة، وربما يشملنا بجاههم أمر العفو. وبينما نحن كذلك إذ ذات يوم نصاب بصدمة اعتقال التجاني عبد القادر وداود بولاد، ومثّل الأمر بالنسبة لي صدمة، لأنه كانت لي مصادر معلومات مستقلة، وكنت ملماً تماماً بأن البلاد مقبلة على حركة جهادية تقودها كوادر الجبهة الإسلامية قد توجهت لاستلام السلطة وتخليصنا من السجن. وكنت أعرف أن خيرة كوادر الحركة الإسلامية قد توجهت إلى ليبيا للتدريب على استخدام السلاح، وتقوم بقيادة مليشيات الأنصار بالتعاون مع الكوادر المتعاطفة داخل القوات المسلحة. ولذلك كنت مدركاً لأهمية أن تظل المعارضة الطلابية فاعلة في تحريك الشارع حتى حلول ساعة الصفر - كما يقولون - لذا فقد بادرت مقترحاً أن نعمل على تهريب التجاني وبولاد، وإخراجهم من السجن، وتكونت لجنة رباعية لمتابعة التفاصيل عن نسج للحيل وتغطية وتعمية الحراس من يوسف فضل الله، فاروق أحمد آدم، بابكر حنين، أمين حسن عمر. وتم إعداد العدة بما في ذلك التعامل مع المصابين بالأرق، الذين كان يجب العمل على إبقائهم تحت بطاطينهم حتى لا يرنوا بأبصارهم، وبالفعل تم تخويفهم.

وفي الساعات الأولى من الصباح، وما إن هجع الحراس حتى تمت المرحلة الثانية بنجاح وهي شبك الحبال بالسلك الشائك، ثم تلا ذلك لحظات العبور الرهيبة التي توافقت مع اشتداد نبيح الكلاب في الخارج، ثم تم سحب الحبال مرة أخرى وإعدامها بنجاح. وعاد الجميع لمواصلة النوم. وكانت المرحلة الرابعة مرحلة تأمين الفرار، وذلك بإخفاء أمر الهاربين على الحراس يوماً أو يومين، وتولى أمر ذلك بابكر حنين الذي ما تحيّن ساعة عودنا حتى يهرع إلى الحمام ثم يأخذ في القفز من حمام إلى حمام موهماً الحرس بوجود شخصين. وتعمدنا أن يتم كشف أمر الهروب في يوم الزيارات حيث يكون أمر السجن مسئولية مشتركة ما بين رجال الأمن والسجن حتى تصبح مسئولية الهروب موزعة بين الأمن والسجن وقد كان.

كيف قضينا أيام السجن؟:

فطرة الله التي فطر الناس عليها هي عشق الحرية، ولذلك وضعت الشريعة قيوداً شديدة على انتهاك حريات الأشخاص وأماكنهم ومعابدهم. بل إن الشريعة لا تجوّز على الشخص دخول بيت غيره دون الاستئذان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور : ٢٧).

والسجن مجموعة من الضغوط والابتلاءات، فهناك ضغط العائلة خصوصاً في أوقات الزيارات، حيث تنقلب الزيارة أحياناً إلى ضد غرضها، حينما يأخذ الزائرون في البكاء وإظهار العواطف التي لا لزوم لها.

وهناك ضغط حركة الحياة خصوصاً حينما تحس بأن المقصود من المعاملة الانتقاص من كرامة الإنسان، كيف لا؟ وأنت ترى السجّان يغلق عليك الباب ويفتحه ويأمرك بالجلوس والقيام، وقد يستدعيك لمهام ما أنزل الله بها من سلطان.

وهناك ضغط المبيت خصوصاً في المراحل الأولى، حينما يكون الرقاد على الأرض أو النمرة (حصيرة وبطانية) والأكل الخشن وماء الماسورة.

وهناك ضغط الزمن والانتظار وهو ضغط صعب، لذا فلا عجب أن سجل القرآن قول سيدنا يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ (يوسف: ١٠٠).

ولكن كذلك للسجن منافع، فهو يعلّم الصبر، والصبر مفتاح النصر، والصبر هو أداة المؤمن لامتصاص الأزمات، والصبر هو ثبات باعث الدين أمام باعث الضعف أو الهوى. والصبر هو تأهيلٌ للقيادة والإمامة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة : ٢٤).

والسجن مدرسة، فهو بقدر ما هو نقمة يمكن أن يتحول إلى نعمة. وقديماً قال ابن تيمية في محبسه في مصر – حينما اتهمه علماء مصر بالتقليل من وضعية النبي (صلى الله عليه وسلم) لعدم تجويز الاستعانة به، وكانوا يظنون أن السجن سيحطم قواه ويرده مسالماً طيعاً قابلاً للمقولات والأحكام السائدة – لو علم أبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم لجالدونا عليه بالسيوف.

وفي السجن كانت الأخبار تجد طريقها إلينا عن طريق كوادر الأنصار وأبنائهم، ولما كانت علاقاتي بالأنصار قد ازدادت واستحكمت فقد كانوا يحدثوني عن تقدم مشروع

الجبهة الوطنية لإسقاط النظام، وكان الأخوان يعرفون أن هناك عملية عسكرية يجرى الإعداد لها بالتعاون مع ليبيا، ولكن ما كانوا يحدثون كوادرهم عن حجمها وزمانها ومراحل الإعداد لها، بينما كانت المعلومات تصلنا طرية من الأنصار، وطال انتظارنا لهذه الحركة التي أصبحت باب الأمل بالنسبة لنا وطريق الخلاص، خصوصاً أننا أوشكنا أن ندخل سنة ثانية سجن، وفي السجن لو انفجر إطار عربة لحسبته انقلاباً عسكرياً، إذ في السجن كثيراً ما كنا نخلط بين أمانينا وحقائق الواقع المر.

كنت مستغرقاً في التفكير في هذه الحركة، ورغم شح المعلومات إلا أنني كنت مستيقناً أن صفوة الكوادر الإخوانية جزء من هذه الحركة، وأن مصيرنا ومصير البلاد مرتبط بهذه الحركة. ومع أنني كنت مستغرقاً كذلك في تلك الأيام في ترجمة رسالة الكاتب الأمريكي ريتشارد متشل – وهي رسالة دكتوراه أعدها عن حركة الإخوان المسلمين في مصر – إلا أنني كنت كثيراً ما أتوقف عن الكتابة وأشرد في الصحراء الليبية مع المشروع الحلم. وبدأت تصل لي الأخبار بأن الاستعدادات قد اكتملت، وأن الجموع قد تسربت إلى الخرطوم حوالي الثمانمائة أنصاري، وسبعة وثلاثين من الأخوان، وحينها بدأ لي أن ساعة الصفر قد أوشكت لهذه الجموع. فإما أن تضرب ضربتها، أو ينكشف أمرها، خصوصاً أن قواعد الأنصار لا تعرف سراً. بل أنني قدرت أن ساعة الصفر ستكون يوم الجمعة أو السبت متوافقة مع عودة نميري من رحلته الشهيرة مع منصور خالد وغيرهم إلى أمريكا مروراً بباريس.

وفي يوم الجمعة وبعد صلاة الصبح سمعنا دوي قذائف المدافع، ولكن بعد فترة لفّ المكان الصمت. وحرت وحسبت أن الأمر مجرد تمرين من تمارين القوات المسلحة. وفي صلاة المغرب لم أكن أبداً مع الإمام – كنت شارداً ومستغرقاً تماماً مع مشروع الخلاص – حتى أنني سلمت قبل الإمام إذ حسبت نفسي أصلي منفرداً.

وبعد المغرب دخل المساعد الطبي لمعالجة حالة، وكنت أعرف أنه أنصاري. فأخذته على جنب وسألته. فأجابني منتشياً بأن الرئيس النميري قد اغتيل، وأن السيد الصادق سيذيع بعد ساعات بيان النصر، وأن الحركة قد نجحت تماماً.

وبالفعل نقلتُ ذاك لقيادة المعسكر، مما أدى إلى نشوة وتكبير وفرح. وبالطبع مسارعة البعض في تجميع الأمتعة استعداداً ليوم الخلاص، والحمد لله أننا لم نفكر في مباغتة الحرس والخروج من السجن عنوة، وقد كان ذلك وارداً، ولو حدث ذلك لكان له نتائجه الكبيرة على الشباب.

وبعد فترة أخذت الأخبار الصحيحة ترد إلينا، والتي كان مضمونها فشل الحركة، ليس ذلك فحسب، بل إن السلطات تمكنت من وضع يدها على كل العناصر التي كان نصيبها الموت الفوري، باعتبارها حالة حرب ومحاكم ميدانية، وتسربت ذات يوم صحيفة قرأت بين ثناياها أن بين المرتزقة طالب لغة فرنسية بجامعة الخرطوم وعرفت على الفور من هو؟ أنه صديقي عبد الفضيل إبراهيم – من كريمت المغاربة بالقرب من المناقل – وكثيراً ما كان يحكي لي كيف أنه كان الأثير في العائلة، لأنه ابن بعد عدة بنات، وأنه حينما قبل في المدرسة الأولية خرجت كل العائلة لتزفه، وأن والدته ودعته باكية مجهشة، ثم سارت الأمور وتقدم في التعليم، كانوا يحسبون الأيام والليالي، فهو أول من تعلم في هذه الأسرة. وإن كان للأسرة فرع آخر مقيم في أربجي كانوا أحسن حظاً.

ما يهم أخذت الأخبار تتابع، ومنها كيف استقبل عبد الفضيل والدكتور عبد الله ميرغني خبر الحكم عليهما بالإعدام، فقد استقبلاه بالتكبير والتهليل، وضجَّ السجن معهم مهللاً حتى أسلما الروح. وقبل التنفيذ كان وصل خبيز من والدة عبد الفضيل إليه. فأخذ يوزعه على المحبوسين قائلاً: أنتم أولى بهذا، لأننا بعد قليل سنأكل من بسكويت الجنة.

وبعد أسابيع أخذنا نتعرف على قائمة شهداء الأخوان، وكان معظمهم ممن عهد إليهم بواجب احتلال دار الهاتف، وكان من بينهم صديقي طالب الطب عبد الإله خوجلي، والشهيد طالب الهندسة حسن سليمان، والشهيد طالب العلوم حسن عوض الله، والشهيد عبد الرحمن إميلس من كلية الزراعة، بالإضافة إلى ختم عبد الكريم وإدريس همت وكان هؤلاء يدرسون في ليبيا.

لقد جلس الإخوان كقيادات وتنظيم وكحلقات نقاش في مدارسة لماذا فشلت حركة ٢ يوليو ١٩٧٦م الجهادية، وكان لفهم الأخوان لوقائع حركة يوليو وتحليلهم لهذه الوقائع أثر كبير في تغيير نظرة الحركة لنظام نميري، وكذلك لمستقبل تعاونهم واتصالهم بتحالف الجبهة الوطنية والذي أساسه وقوامه حزب الأمة بقيادة السيد الصادق المهدي.

لقد رأى الأخوان في حركة يوليو عدداً من الانقلابات والتيارات، فهناك تيار الباحثين عن المال الذين مثلتهم بعض قيادات حزب الأمة في الداخل، والذين استلموا مبالغ ضخمة لتوفير سيارات لنقل السلاح من الصحراء لداخل العاصمة، ولكنهم – كما يشاع

- نهبوا المال واشتروا سيارات منهكة مما أجّل الحركة ودعا القيادة لإرسال سيارات جديدة من ليبيا تحت قيادة إبراهيم السنوسي لتوصيل السلاح، وكان لتأخير الحركة نتائج منها اعتقال الكوادر الشبابية للأنصار، مما جعلهم بدون قيادة وسيطة، وجعل الأمر كله في يد عناصرهم القاعدية.

ثم إن قيادة حزب الأمة كانت متشككة في دور الإخوان، أو غير راغبة في إعطائهم أي دور حقيقي، فعزلتهم عن الإذاعة والتلفزيون حتى لا يكونوا قادرين على مخاطبة العالم. بينما كانت هذه القيادة لا تملك أي قدرات مهما كانت ضئيلة لإدارة هذه الأجهزة الحساسة. والتي لا نجاح لمشروع بدونها، كما إن قيادة الأنصار اعترضت على دخول عثمان خالد مضوي ومهدي إبراهيم لقيادة الحركة في الداخل.

وكذلك فإن شباب الإخوان كان من الطبيعي أن يكونوا بمثابة الضباط أو القواد للحركة. ولكن عدم اطمئنان قيادة حزب الأمة لمقدرات عناصرهم وشكها في الإخوان جعلها تصر على عزل الإخوان عن مسار الحركة العام، وحصرهم في عمليتين في المطار ودار الهاتف. وبعض عمليات الاتصال المحدودة التي قام بها السنوسي وآخرون.

وقد ظهرت نوايا قيادة حزب الأمة في العوينات، وكان السكر والنشوة قد بلغ بالقيادة مداه، إذ كانت غير مهيأة إلا لتقبل التهاني بنجاح العملية، حينما أصر عثمان خالد مضوي على السيد الصادق المهدي إعلان الحكومة حسب ميثاق الجبهة وتفاهم القيادات بالمساواة في السلطة الانتقالية، ذكر له الأخير بأن الأنصار في حالة مهدوية وأن اقتسام السلطة ستحدده الأحجام والأوزان في الحركة، وأن الأنصار لا يقبلون بغير ذلك، يعني ذاك أن مواثيق الماضي والحاضر لا تعني أي شيء بالنسبة لقيادة الأنصار.

كما كان هناك لغز المرحوم الشهيد العميد معاش محمد نور سعد، والذي لم يكن ليمد رأسه ليقطع من أجل أن يمكّن معارضة متضاربة ومتنافرة من كرسي الحكم. ومهما يكن فقد لطف الله وفشلت الحركة، وعاشت قيادة الحركة الإسلامية في الداخل أيام صعبة. ولكن نجحت في أن تؤمّن سلامة الأخوان الذين اشتركوا في العملية برغم ضغط الظروف وبطش النظام وانتشار حركة التعقب والتفتيش والتخويف والحرب النفسية. وأصبحت بيوت الشاذروان، وعبد الرحيم مكاوي، والشبلي، وغيرهم ملاذاً ومأوىً للمجاهدين. بينما أغلق البعض أبوابهم في وجوه المجاهدين، وفي مثل هذه الأحوال تنكشف معادن الرجال.

وما هي إلا وقد انصرمت أسابيع على حركة يوليو حتى بدأت المعلومات تتكامل عنها وعن مسارها. وتعرض عدد من الأخوان للتعذيب (عبد الله بدري - ياسين عابدين) وغيرهم، وبدأت المراجعات، وأحس الجميع بأن الحركة محتاجة لهدنة مع النظام. وفوق ذلك فقد أصبح الجميع على قناعة أنه لا يوجد خيار أمام الحركة الإسلامية سوى الاعتماد على ذاتها وقدراتها لإيجاد البديل الإسلامي. ومعنى ذلك أن تبدأ من جديد. وأن تعتمد على ذاتها في رعاية المجاهدين في الخارج، وأن تشق طريقاً جديداً.. وأن تجتهد في تصفية ودمل جراح الماضي. فقد كانت الضغوط كثيرة ومتعددة، كان هناك ضغط مئات الإخوان المحبوسين، وكان هناك ضغط الإخوان الذين استشهدوا في تشاد أبان فترة الحرب الأهلية التي أعقبت الإطاحة بفليكس مالوم الرئيس التشادي. وكانت هناك مسئولية تجاه أسر هؤلاء بإبلاغهم باستشهاد أبنائهم في ظروف صعبة، وكذلك بمحاولة رعاية ما تيسر من أسر الشهداء والمعتقلين. وكان هناك ضغط الذي فصلوا وفقدوا وظائفهم، وكان فوق ذلك هناك ضغط وسعي الحركة لإقامة مشروعها الإسلامي وعدم استقالتها من درب جهادها.

وحينما كانت الحركة الإسلامية تعيش في حالة عقلية نفسية أساسها الحاجة لمراجعة داخلية عميقة للاستعداد لتحديات المستقبل، أخذ نظام نميري يعدل في سياسته واتجاهاته، فطرح منهج الولاية الرشيدة، وطرح مبادرته أو مشروعه للولاية الثانية. والتي حاول بها سحب برنامج الجبهة الوطنية وتجريدها من مشروعها بتبنيه للنهج الإسلامي. وفي إطار برنامج الولاية الثانية نشط نفر من عقلاء السودان في محاولة للتقريب بين المعارضة والسلطة.

ففي السعودية بدأت هذه المحاولات عن طريق الأمير محمد فيصل الذي استحكمت علاقاته مع نميري، وأنشأ بمساعدة عدد من الإسلاميين السودانيين (علي عبد الله يعقوب وحمدي) بنك فيصل الإسلامي، ودفعت محاولات الأمير محاولات أخرى نشط فيها الطيار زولفو وفتح الرحمن البشير، وقصة المصالحة الوطنية قصة طويلة. ولكن ما يهمنا منها أن أبواب السجن فتحت ذات يوم للشيخ حسن الترابي ليقابل السيد فتح الرحمن البشير، ووافق الشيخ على مشروع المصالحة مما أذهل فتح الرحمن الذي كان يعتقد أن أعصى العُقد سيكون الشيخ الترابي، ولم يك فتح الرحمن يعلم أن منطق

المصالحة بالنسبة للترابي أولاً داخلي، ثم تأتي الاعتبارات الأخرى، واشترط الترابي إطلاق سراح المعتقلين، والعفو العام، والحرية للحركة الإسلامية. وقد كان ذلك.

وأطلق سراح الدفعة الأولى من المعتقلين وعلى رأسهم الشيخ الترابي والسياسيين الموجودين في سجن كوبر ووصلنا خبر ذلك في دبك فابتهجنا. وكان عدد الحافظين فينا لكتاب الله قد بلغ فيما أعتقد أربعة وثلاثين. وجاء اليوم، وطلبوا منا أن نجلس كما هو الوضع في السجن في خمسات، وبدءوا في تلاوة القائمة والقلوب تخفق - لقد تم إطلاق سراح كل الإسلاميين أعضاء الجبهة الوطنية ولم يبق إلا الشيوعيون الذين كانوا غير داخلين في ذلك المشروع الذي عرف بالجبهة الوطنية.

وفي الخارج ربضت شاحنة ضخمة ولكننا كنا نحس بأنها أحلى وأكثر متعة وراحة من المرسيدس، واندفعت جموعنا بملابسنا البالية إلى داخل الشاحنة، وأخذنا نهتف الله أكبر. الله أكبر. فالفرج قد جاء بعد عامين من السجن والمعاناة والكبت النفسي والاجتماعي. وكنا نعتقد أن الشارع ينتظرنا على أحر من الجمر، وأن الجماهير ستحيينا في الطرقات. لذا فلا عجب أن بادر ركب الشاحنة لرفع أياديهم في شوق ولهفة على كل تجمع في الطريق. ولاحظ ذلك د. بكري عثمان سعيد بذكائه وطلب بسخريته المعروفة من الجميع أن يوقفوا هذه الحركات، لأن الجماهير في شغل عنا، وربما اعتقدت أنا مجرد مساجين، كما أن منظرنا لا يشجع على التفاعل، والأولى الستر. والتزم الجميع بالنصيحة لتبدأ رحلة أخرى في إطار المصالحة الوطنية.

مع أن فترة السجن التي امتدت من انقلاب المرحوم الشهيد حسن حسين إلى المصالحة الوطنية، كانت من أقسى المراحل التي مررت بها، وكنت مشبعاً بعدم الثقة في مفاجآت المستقبل، خصوصاً نحن الذين ربطنا أنفسنا بالشهادات والدراسة المتصلة، وكثيراً ما كنت أتساءل يا ترى هل في الوسع أداء ما تبقى من الامتحانات وطي صفحة الجامعة؟ أم الأفضل أن نبدأ في شق طريق جديد ولو كان من الصفر.

ومن ناحية أخرى كان السؤال المحوري يظل ماثلاً - مستقبل المشروع الإسلامي - لقد دخلنا في صراع مع حركة الدولة والمجتمع، والدولة ليست فقط جعفر نميري، ولكنها الآلاف من الضباط ومديري البنوك وقادة الخدمة المدنية، وبالتأكيد فإن كل هؤلاء يشكون في جدوى مشروعنا ويتوجسون منا ولا يؤمنون إلا بمشروعية اتباع الضرب واللحاق به وبالطريقة التي يريدها.

ماذا كنا نعني؟ صحيح هناك الترابي، ولكنه في ذلك الوقت مجرد رمز يصارع في معركة وبجنود من حجمنا، والمعركة تبدو لا متناهية. منشوراتنا وخطبنا وجهودنا تبدو مجرد صيحة في واد.

ولكن ما العمل؟ فليس أمامنا إلا الاستمرار والثقة في الله هناك. فالله هو الأصل وهو المنتهى، وهو الغاية، ولا شك أن الله عز وجل يبتسم وهو يرى ما نحن فيه من ضيق. وفي الحديث ما معناه إن العبد ليضيق والرب يبتسم وقد علم أن الفرج قريب.

في اليوم الثاني من خروجي من السجن أخذت معي الأخ فاروق أحمد آدم، الذي نزل معي في أم بدة بمنزل الخال محمد عبدون، وذهبنا معاً إلى مكتب المحامي علي عثمان الذي كان يعمل في مكتب محمد يوسف، وهناك قابلنا علي عثمان هاشاً باشاً وعلق على مظهري قائلاً (أنت أنت لم تتغير). وعلق على لحية فاروق (لا أدري ماذا قال)، ولدهشتي فإن فاروق قام بحلاقة لحيته لحظة عودتنا، ما يهم أعطاني علي عثمان مائة جنيه حولتها في لحظتها للأخ فاروق الذي قام بتوزيعها على عدد من الذين أطلق سراحهم، ووصلني منها مبلغ لا بأس به أعتقد في حدود عشرين جنيهاً.

وبعدها وبعد عامين في السجن كان من الطبيعي أن أسافر إلى الشمالية مرة أخرى لمقابلة الوالدة، التي وإن كانت صابرة إلا أن السنين وتجاربها المريرة معي قد بدأت تظهر آثارها عليها، وهناك أصرت الوالدة أن تسافر إلى الحج، ووافقت على أن تعطيني فقط فرصة لإكمال الامتحان، وكان الامتحان نعم القميص – قميص عثمان الذي ألوح به حتى أستعجل السفر إلى الخرطوم، التي – بالرغم ما لاقيت فيها – أشعر بأمر باطني يشدني إليها، ويقيني أن التقاء النيلين في الخرطوم ليس عبثاً، وأن الخرطوم على موعد مع القدر. ومن الخرطوم سيعم نور الإسلام من جديد كل المنطقة – وطوبى لأهل الجزيرة الكبرى – طوبى لسكان القرية التي نمت من مسيد حمد أم مريوم، هذه القرية موعودة بأن تأخذ وضعاً في التاريخ على شاكلة مدينة الراشدين ودمشق والأمويين وبغداد العباسيين وقاهرة الفاطميين وقرطبة الأندلسية، وقسطنطينية العثمانيين، هل أبعدنا النجعة؟.

ما يهم ما إن استقر بي المقام حتى دلفت للمكان الذي أعرفه، كلية الآداب جامعة الخرطوم، عميدها حينها هو بروفيسور يوسف فضل حسن، ولم تكن تربطني به أية علاقة حينها، ولكن كان اللقاء، والذي بدأ بسوء التفاهم إلى صداقة حميمة، أصبح بروفيسور يوسف فضل بالإضافة إلى المرحوم بروفيسور محمد عمر بشير المشرفين

الأساسيين على رسائلي فوق الجامعية، اعتقادي أن المشرب الفكري أو المنطلق الأيدلوجي ليس وحدة الأساس للصداقة، فهناك المشرب الإنساني، وبالنسبة لصداقاتي فهناك العمل الإسلامي للبعض، وهناك المقدرة على الحوار وإثارة الأسئلة وتفهم الحركات كظواهر قابلة للنظر والنقد، وهناك من أشرك معهم في الاهتمام بالتاريخ وأبعاد الذات الإنسانية، وهناك من ربطني بهم رباط العفوية والخلو من العقد، والله أعلم.

ما يهم أكملت الامتحان، وفي أثناء أدائي للامتحان، لم تفارقني هموم العمل. فأخذت أسعى إلى مكتب د. التجاني حسن الأمين عميد الطلاب حينها وفتحت معه قضية الاتحاد حينها والاعتراف بلجنته. وحدثته أنه من الضروري لمدير الجامعة (بروفيسور علي فضل حينها) بفتح الحوار حول الاتحاد، وإلا فإن منطق المصالحة الوطنية سيتجاوزها، وربما جاءت إشارة من الرئيس النميري، وحينها سينتقل الحوار الجامعي إلى ساحة أخرى. والتقط د. التجاني كلماتي ورفعها إلى المدير الذي رتب لنا لقاء آخر مع نائبه، وانتهى اللقاء بصداقة مع د. التجاني الذي أصبح عاملاً نشطاً في الحقل الطلابي، وعاد اتحاد جامعة الخرطوم إلى قبضة الاتجاه الإسلامي، (التجاني عبد القادر، أو معتصم عبد الرحيم وأمين بناني).

طويت صفحة الجامعة، وبدأت رحلة بحث عن عمل، والعمل حق، والعلم شرف، والعمل يعني اعتراف المجتمع بالشخص، ويعني استقلال العضو، ويعلي مكانه على ساحة الحياة. ويعني العنوان.

وحينما بدأت رحلة البحث عن العمل، كنت أجد أني لا أختلف كثيراً عن اللاجئين والمشردين، مع أن هناك بيتاً يمكن أن آأوي إليه، وأصدقاء يمكن الاقتراض منهم. ولكن كذلك أنا بلا بطاقة، بلا استقلالية. كانت الأبواب موصدة، إذ كيف يمكن لأي موقع عمل أن يرحب بشخص جديد كل مؤهلاته أنه مشاغب، وفصل ثلاث مرات من الجامعة. وقضى ثلاث سنوات سجناً، يحمل مؤهلاً متواضعاً في التاريخ والفلسفة.

دعيت في نهاية المطاف إلى أستاذي وصديقي توفيق أحمد سليمان، وكان حينها وكيلاً لوزارة التربية والتعليم، ولم أكن أريد أن أكون عبئاً عليه، ويكفي ما فعلنا فيه حينما كان مديراً - ناظراً – لحنتوب. لذا وبعد تفكير قررت إلا أكلفه بأن يضمني لكشف معلمي التربية والتعليم، ولكن فقط أن يكتب لي توصية، وطلب مني أن آتيه فوراً في اليوم التالي.

وفي صباح اليوم الثاني كنت في مكتب الأستاذ محمد بدري، والذي قابلني وكأنه يعرفني منذ سنين، وأخبرني أني سأكون مدرساً لمادة اللغة العربية للصفوف النهائية للطالبات.

وحوقلت في سري، آخر ما تصورته أن أكون مدرساً لبنات، وهن بنات ذوات. أنا الذي لا أملك إلا قميص وبنطلون، وكأنّ المتاعب أبت إلا أن تتبعني، فحينما أخذت الجدول وجدت فيه ٢٤ حصة أسبوعية معظمها في النحو الذي أكرهه. كم (دككت) محاضراته في الجامعة. ولكن إن لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تعيش جباناً.

أقبلت على التدريس، تدريس النحو: العلة والقلب والإبدال، والذي كنت أذاكر فيه الليل. ولكن كان كثيراً ما تطير القوانين من رأسي نتيجة لأفاعيل طالبات الأحفاد المشاغبات. وكنت كثيراً ما أفقد السيطرة على الفصل، وكان ما يخفف عليّ الضغط الحصص الأخرى التي مجالها النثر والأدب والنقد والبلاغة والتي كنت لا أفتح كتابها إلا قبل دقائق من موعد الحصة.

المهم لم أكن سعيداً بتجربتي وما فيها من تحضير وضغط عمل، حتى جاء امتحان الشهادة. ثم الإجازة الصيفية، وحينها طلبوا مني أن أوقع عقداً بمقتضاه أنال راتب العطلة الصيفية. ولكني أعتذرت، إذ اكتشفت أن هناك ثمة استحالة في أن أظل مدرساً. وقررت أن أعود للدراسة في الجامعة كطالب دراسات عليا، ولم يكن صعباً لصداقتي ومعرفتي بكل القائمين على أمر الدراسات العليا في ذلك الوقت.

اتصلت بي إدارة التنظيم ممثلة في أحمد عثمان مكي طالبة مني التفرغ للعمل التنظيمي في مكتب الطلاب المركزي، وأصبحت مشرفاً على دارفور وجنوب السودان (مناطق الشدة). وبالفعل سافرت إلى الفاشر وأقمت مع الأخ باشمهندس الفاضل مدير شركة دارفور للنقل حينها بمنزله، وأخذت في إقامة شبكة التنظيم في دارفور متنقلاً بين الفاشر ونيالا. وكان الحاكم حينها اللواء محمد عبد القادر – ولم يكن الأمر صعباً – فهناك بنيات جاهزة يمكن البدء فيها، ولكن فقط ابتدعت شكلاً تنظيمياً يقوم على تحديد وظائف بعينها لكل عضو وفي كل خلية أو أسرة أفقياً ورأسياً، فمثلاً الخلية من خمس أعضاء تكون كالآتي:-

أمير

مسئول مال — سياسي — تربوي

مسئول معلومات واتصال — نشرة

دعوة

ثم يمثّل كل عضو خلية في المكتب الذي يناسبه وتكون بذلك الخلية موصولة بالتنظيم رأسياً بالأمير، وأفقياً بكل عضو في مكتبه التخصصي... الخ. وكان أشق تجربة مررت بها حينما تعطلت الشاحنة نتيجة للأمطار على بعد ٥٥ كلم من الفاشر، في منطقة وادي النعام ودنقر شوفو، مما اضطرنا إلى حمل متاعنا والسير بالأقدام والأوحال - وكنا صياماً على الأقل شخصي - وقطعنا المسافة في ١٤ ساعة.

وبعد أن اطمأننت على العمل في دارفور عدت للخرطوم للتوجه للجنوب. واخترت أن تكون محطتي الأولى جوبا، وحينما ارتفعت الطائرة في السماء متجهة لجوبا صارت دواخلي مسرحاً لانفعالات شتى. ماذا يعني الجنوب بالنسبة لي؟ حوادث أغسطس ١٩٥٥م التي مات فيها عدد من أقربائي. وقد عاد أبطال هذه الحوادث ليكونوا نواة لحركة أنانيا. وما يزال هذا التمرد لغزاً. إذ انفجر في وقت كان فيه السودان يستعد للاستقلال. وكان ذلك يتطلب وحدة داخلية. وهناك عدد من التفسيرات منها: الإشارة الكاذبة للتلغراف الكاذب الذي نسب إلى الأزهري بأنه أرسل للمحافظين بالجنوب طالباً منهم إبادة الجنوبيين. فانتشار خبر هذا التلغراف أدى للكارثة، ولكنني أستبعد ذلك، فقد يكون طبخ التلغراف من جملة التعبئة النفسية والإثارة ولكن المخطط ذاته قديم.

وبعضهم يربط بين ذلك وبين الحرب الكلامية التي شنتها الإذاعة المصرية على السودان بعد أن اتجه الأزهري في طريق إعلان الاستقلال، مما دعا الإذاعة المصرية لتحريض الجنوبيين على الثورة، حتى تنهار المسألة الأمنية ويتأجل إعلان الاستقلال.

وفي تقديري أن السبب الأساسي يكمن في تكوين الفرقة الاستوائية ذاتها، والتي أعتقد أنها كونت منذ سنوات قهر السودان على يد كتشنر وونجت Wingat حيث تم بناء هذه الفرقة على أساس استبعاد العناصر العربية الإسلامية منها، وأن لا يدخلها أي جنوبي يحمل اسماً إسلامياً، وأن تقتصر على المسيحيين، وأن يختلف تثقيفها وتأصيلها عن الفرق الموجودة بالشمال، وعليه كانت هذه الفرقة جاهزة ومهيأة للانفجار، وفجرتها ذات الجهات التي حضنتها ودربتها وتعهدتها.

سافرت إلى الجنوب في ظل الصحوة الكنسية وليدة اتفاقية أديس أبابا، والتي كانت تعطي انطباعاً بأن الجنوب أصبح دولة، إلا أنها متينة العلاقة بالسودان. إن السودان يتكفل بدفع فاتورة تسيير الدولة، ولم تكن إدارات الجنوب تعترف بالرئيس السابق جعفر نميري. ولكن

برغم ذلك فقد أدت اتفاقية أديس أبابا إلى استتباب الأمن ومساعي التنمية والتعدد. ولا زلت أذكر حينما سافرت إلى ياي كيف قامت أكواخ عدد من الأهالي وسط مزارع البن. مما كان يعني أن فرص الازدهار متوفرة.

لم أكن أحمل أي عنوان في جوبا خلا اسم المرحوم خالي عبد اللطيف محمد عبد الله، والذي كان تاجراً معروفاً هناك. نظرت من خلال نافذة الطائرة ومسحت مروج جوبا الخضراء، وأحسست بأنني أحب هذه المدينة. وأنني سأترك بصماتي فيها. أخذت تاكسي وطلبت منه أن يأخذني إلى منزل الخال. وكان السائق يعرف المنزل. فاندفع بي بينما كنت مشغولاً في فهم طابع جوبا والتعرف على مدخلها. حيث لم أنتبه إلا بعد أن وكزني قائلاً: (لقد وصلنا).

وما إن سلمت على الخال وأبنائه حتى استأذنتهم في الذهاب لجامعة جوبا. متعللاً بأني أريد رؤية الجامعة، ودلفت إلى الجامعة، والتي أعجبتني. وقضيت فيها سحابة يومي، وكنت أبحث عن رائحة تدين، ولم يخب ظني إذ سرعان ما عثرت على منطقة صلاة جماعة، وحرصت على أداء صلاة المغرب معهم، وبعد المغرب تعرفت عليهم فرداً فرداً. وحرصت على ألا يغادر أي واحد منهم مكان الصلاة إلا بعد أن أربطه بي وأتعرف عليه. ثم دعوتهم جميعاً للغداء معنا مستفيداً من الوليمة التي جهزها الخال المرحوم. وبالفعل حضروا. وكلمتهم عن ضرورة تشكيل جمعية للدعوة الإسلامية. فوافقوا. وتطوّعت بكتابة الدستور ولوائح العضوية. ثم عرضت عليهم أن أقدم لهم ندوة في الجامعة بعنوان أيدلوجية الوحدة بين الشمال والجنوب، فوافقوا. وعقدت الندوة. وحضرها جمهور كبير من الطلاب: شماليين وجنوبيين. ثم تابعت عملي مع المجموعة التي ضمتها جمعية الدعوة الإسلامية، والتي أصبحت جمعية دعوة بحق وحقيقة. وأصبح فيها مكتب للاتصال الخارجي، ومكتب ثانويات، ومكتب للمرأة، واندرج فيها كل أدب الحركة الإسلامية. فقد كنت محمّلاً بالكتب. وأصبح الأخ عوض الله سعيد رئيساً للجمعية. وقد كلّفه ذلك الفصل من جامعة جوبا. ولكننا نجحنا في أن نجد له بعثة في جامعة محمد بن سعود.

ما يهم، رغم التضحيات التي صاحبت قيام أول نواة للحركة الإسلامية في جوبا. وما صاحب ذلك من فصل عدد من الإخوان، إلا أن العمل أخذ يثمر. ونمت فروعه في المدارس الثانوية العامة، ودخل عدد من الطالبات في الإسلام في مدرسة جوبا التجارية.

واخذن يصدرن جريدة (الجهاد)، مما أحرج وضعي وكشفني. وكذلك أخذنا في إقامة النواة في المدارس الثانوية العامة، وباختصار أصبحت هناك نواة حركة إسلامية جنوبية تضم الطلاب والطالبات، ومن هناك سافرت إلى ياي حيث قابلت الأخ عبد الله آدم زكريا. وطمأنته على سير الأوضاع، ثم ذهبت إلى ملكال والتي كانت فيها صحوة إسلامية لم يكلفني توجيهها الكثير بفضل جهود الأخ الشايقي الذي كان مسئولاً عن الشؤون الدينية، وأعتقد كذلك هل يا ترى جلال السيد المراد أم من؟ كما كان هناك عدد من الشبان خريجي الجامعات السعودية. لقد أصدأت الخروق الذاكرة، ثم عرجت على واو. ثم عدت إلى الخرطوم وكتبت تقريراً عن ما حدث، وكانت الحركة حينها تفكر في إقامة مشروع دعوة عالمي الإدارة إفريقي الخطاب والوجهة مما أدى إلى بروز المشروع، والذي ما لبث أن تبلور في منظمة الدعوة الإسلامية.

مما لا أنساه أنني اخترت سبعة عشر من الشباب الجنوبي ليأتوا براً باللواري إلى الخرطوم من الجنوب، حتى يتم تأصيلهم إسلامياً، وتوافق وصولهم للخرطوم أن كنت منغمساً في امتحان الدبلوم العالي معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، ولذلك لم أتفرغ للإشراف عليهم وتركتهم في رعاية الأستاذ حسن عثمان رزق والمحبوب عبد السلام. ويبدو أن أمر هؤلاء الطلاب قد شاع وانكشف. فعرفت الكنيسة، وعرف ذلك عدد من السياسيين الجنوبيين، وأثاروا ذلك في المؤتمر القومي للاتحاد الاشتراكي، كما أن الطلاب أخذوا يأتونني إلى الجامعة ويسجلون حضوراً في نشاطها.

ولم أكن أعلم أن أمر هؤلاء الطلاب قد تحول إلى أزمة دخل فيها الأمن وضخّمها بعضهم في محاولة للنيل من الحركة الإسلامية، وأنها تعمل على خلع اتفاقية السلام والنظام. ومع أنه بلغني طرفاً من ذلك إلا أنني لم أهتم، بل وربما كنت مرتاحاً مما حدث. حيث كنت أعتقد أن هذه التجربة ستقوم. بينما كانت قيادة التنظيم مشتاطة غيظاً، ولم أنتبه إلى ذلك إلا بعد منتصف الليل حينما هجم عليّ علي عثمان وأخذني إلى منزل د. الترابي الذي هاج وماج بينما كنت مستغرباً فيم كل هذه الزوبعة؟.

ما يهم تكررت زيارتي للجنوب، وأذكر حينما ذهبت للمسلمين في نواحي كاجو كاجي قالوا لي هذه أول مرة يزورهم فيها مسلم بعد يوسف الخليفة أبوبكر، وما زلت أذكر مناظر أطفال اللاجئين اليوغنديين، التي كانت تمزق القلوب، وكانوا كلهم مسلمين، وكانوا يستقبلونني بنشيد (طلع البدر علينا)، وكنت أرى فيهم سر الله، أرى فيهم نور الإسلام ينبثق وسط

حشد الغابات الإستوائية. وكنت كلما مررت على تجمع يوغنديين تعالت هتافات الباطن (المستقبل الدين) (والله محيط، والله غالب على أمره) وما نحن فيه مجرد أدوات مسخرة في هذا الأمر.

وها هي حركة الدعوة الإسلامية تتكامل وتتسع، وليس ببعيد يوم التقاء مراكز الحركة الإسلامية بالجنوب بالمد الإسلامي في يوغندا وشرق إفريقيا. ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء من عباده وهو العزيز الحكيم.

رسالة الماجستير:

جئت لنيويورك بدعوة من لجنة مناصرة فلسطين، وقد ضم الملتقي عدداً من المفكرين والمجاهدين، ويمكنني أن ألخِّص ما انتهينا إليه في الآتي:

- حول فلسطين واتفاقية السلام: سيكون لهذه الاتفاقية أثر كبير. لأن الاتفاقية تريد القضاء على فلسطين ككيان وفكرة، والاتفاقية ستصبح جزءاً من القانون الدولي ممثلاً في الأمم المتحدة، مما يعني أن من يرفع راية فلسطين في المستقبل ستلاحقه يد القانون الدولي ممثلاً في الأمم المتحدة وليس فقط الموساد، وأن هذه الاتفاقية ستصبح عبئاً وتمثل ضغطاً على الحركات الإسلامية والدول الناهضة كإيران والسودان. وفي ذات الوقت سيتم تنظيف الضفة الغربية من الإسلاميين والوطنيين على غرار حادث الأربعمائة الذين ألقوا للبرد والجوع والتيه في لبنان، وأن النظام الدولي الجديد يرحب ويبارك تصفية الفلسطينيين الشاغبين على أي نحوٍ تم.

- ما يجري في الصومال: استعمار بكل معاني الاستعمار، ونجاح المشروع الاستعماري الأمريكي في الصومال لا يهدد فقط السودان ولكن كل إفريقيا، وكل إنجازات شعوب العالم الثالث في الحرية.

- ما يجري في البوسنة: مسلسل إبادة وتصفية أسوأ مما جرى في الأندلس قبل ستمائة عام تحت سمع وبصر ومباركة أمريكا ودول الغرب.

- تأييد ومباركة التحول الإسلامي في السودان: واعتباره واحدة من مؤشرات النهوض والأمل في ليل الأمة الحالكة.

- هذا بالإضافة إلى خطة للعمل في أمريكا.

وأسواق أمريكا وبريطانيا تطفح بالكتب، وفي يدي كتاب بالإنجليزي ترجمته (جورج بوش: السيرة الذاتية غير المخوّل بها)، ويستعرض الكتاب كيف نمت عائلة بوش وأصبحت من عوائل المال بفضل تعاونها مع عائلة هتلر وآلته الحربية، وصلات جورج بوش مع صناع السلاح والمال. وكيف كان حاضراً في كل حروب الإبادة في العالم الثالث.

أما صحافة أمريكا وبريطانيا فلا تذكر السودان إلا بالأصولية، وأنه يأوي الحركات الإسلامية والإرهابية، وتضخم أوضاع المجاعة وظروف الحرب وانتهاك حقوق الإنسان. وقد

قال لي مرافقي وهو يضحك: ادخل أحياء شيكاغو الفقيرة التي يخشى حتى البوليس الأمريكي دخولها، ويتحاشاها المواطن الأمريكي، وصوِّر فستخرج بفيلم أكثر إثارة مما تصوره شبكات التلفزيون الأمريكية، ستجد الجوع والأفيون يأكل الشباب في قلب أمريكا .

وأحسب بأن الشعب الأمريكي مسجون في سجن الإعلام الإلكتروني، وأن الأمريكيين مساجين وإن لم يحملوا هذا اللقب، وأن زنزانة الأمريكي هي غرفته وتلفزيونه. فهم سجناء بدون سجون وزنازين، وأحياناً أحس بأن اليهود الذين هم وراء تدمير الاتحاد السوفيتي يسعون كذلك لتدمير أمريكا . إذ بعد اتفاقية السلام ربما لا يكون لوجود أمريكا جدوى كبيرة بالنسبة لليهود، كما أن فظائع اليهود في فلسطين ساهمت في بلورة تيار أمريكي إنساني قد لا يرضى بالسلوك الإسرائيلي، خصوصاً أن ما بثته أجهزة الإعلام الأمريكية يمثل الوقود لتنمية هذا التيار، كما أن أمريكا تعج بالتناقضات العرقية والاقتصادية والأخلاقية، وليس ببعيد انفجار أمريكا خصوصاً حينما تجرد نفسها من الأسلحة النووية بمقتضى اتفاقية السلام مع روسيا، ويصبح السلاح النووي مكدس في إسرائيل.

كما ليس للصحافة العربية الصادرة في لندن ثمة شاغل سوى السودان، وهي صحافة ممولة بأموال النفط، وقد أصبح بعض العرب يرون في أمريكا المسيح المنتظر، الذي لا قوام لهم بغيره، فهم يصلون إليه ويسألونه ويتملقونه ويودون أن يحشروا معه دنيا وأخرى. وها هم قد سارعوا بإرسال جنودهم معه في قهر الصومال. ومن القضايا التي تشغل البال في بريطانيا قضية تسريب السلاح وبعلم الحكومة البريطانية لنظام صدام حسين في العراق، و قضية أسلحة الكونترا – الإيرانية – والتي اتضح فيها أن كل كبار المسئولين الأمريكيين متورطين في خداع وغش الرأي العام الأمريكي ومؤسساته التشريعية. المهم دعونا من هذا الاستطراد ونعود لمواصلة ما بدأناه، والذي أرجو أن يكون في سرده جدوى.

عدت من الجنوب، وقدمت تقريري، وفي اجتماع لمكتب الطلاب عقدناه في اللاماب بحر أبيض تقرر أن أنتقل من الإشراف على الجنوب إلى الإشراف على جامعة القاهرة

الفرع، وتقبلت ذلك، علماً بأنني لم أكن أعرف أين تقع جامعة القاهرة، ولم يسبق لي زيارتها، وزودت بمعلومات بأسماء عدد من طلابها الأخوان الذين كنت أعرفهم: حسين خوجلي – عبد القادر يوسف – أحمد مالك – المحبوب عبد السلام.

قمت بعمل زيارة ميدانية للجامعة – وكانت بالنسبة لي تجربة جديدة – فهي لا تشبه أي شيء مما تعودناه في جامعة الخرطوم. الصحافة الحائطية: ناصريون بعثيون – شيوعيون - جمهوريون – أين الصوت الإسلامي؟

(زحمة) شديدة حول البوفيه والممرات، كأنك في عرس أو مأتم، دخان وكبابي شاي وثرثرة طالبات، من أين أبدأ؟

هل أصعد في كرسي وأصرخ بالآذان؟ من سيهتم؟ سيعتبرونني واحداً من المجانين، وربما جاء أمن الجامعة وألقاني خارجاً، خصوصاً أنني بلا بطاقة وبلا عنوان. خرجت وبي مقدمات صداع، ما يهم اتضحت الصورة وليس أمامنا إلا العمل، وتبلورت الخطة.

أفضل أنواع العمل وسط الجموع سياسة المنشور، إذ أن المنشور سيضعه الطالب في جيبه وبين ورقه وسيعود لقراءته في البص أو المنزل في جو هادئ، كما أنه قد يتداول حتى يصل تداول النسخة إلى خمسة أشخاص، فهو بذلك أفضل من الاتصال الشخصي الذي يحتاج لجيش، وأفضل من الصحافة الحائطية التي تحتاج لجهد في الإخراج والإثارة، كما أن الملامسة معها قد لا تكون كافية في جامعة أحياناً يغيب عنها طلابها الأسبوع والأسبوعين.

الأمر الثاني: كسر احتكار العمل المنبري الذي كان قاصراً على اليساريين وإقامة عدة ندوات باسم الاتجاه الإسلامي.

الأمر الثالث: الاهتمام بالعمل المسجدي وصلاة الجماعة في الجامعة.

ورابعاً: الاهتمام بالعمل في الأحياء وسط طلاب الجامعة عن طريق الشعب وبالتعاون مع مكتب العاصمة.

وبدأت بالاتصالات الشخصية، حيث وجدت المحبوب غاطساً في مسجد الأمين عبد الرحمن، وناقشته في أمر الاهتمام بعمل الجامعة، وكنت من قبل قد شجعته على الذهاب والالتحاق بجامعة جوبا، ومع أنه خذلني في أمر جوبا إلا أنه انتصر تماماً للحركة الإسلامية في جامعة القاهرة، وعقدنا اجتماعاً لتدشين خطة العمل الجديدة في الجامعة.

وطلبت منه المبادرة بعمل ندوة سياسية، فقال أحدهم: الأمر يحتاج لأخذ الأذن من الاتحاد،

وهنا كدت أخرج من طوري، بينما كان عبد القادر يوسف يضحك، إذ لم أكن أتصور أن الأمر قد بلغ بالإسلاميين في الجامعة هذا الحد، لدرجة أنهم يستأذنون أعداءهم في إقامة ندوة!. وهنا احتددت وطالبتهم بعمل الندوة دون أي إذن من الاتحاد، وحددنا أسماء من سيتحدثون في الندوة، وموضوع الندوة، كما تم توزيع المنشورين الأول والثاني. وكان للمنشورين دور أساسي في تحريك الرأي العام ووضعه وتشكيله كما نريد.

وحينما تمت الدعوة للندوة من خلال مايكرفون اليد. اشتبك اليساريون مع عبد القادر يوسف، ولكنهم خسروا المعركة رغم أنهم سببوا له أذىً، ولكن الأهم أن الندوة قامت وسقطت وصاية الشيوعيين، ثم تتالت الندوات، وازدادت حركة العمل الإسلامي. وأصبح للحركة الإسلامية وجود قيادي بارز على مستوى الجامعة وعلى مستوى الأحياء. وحينما جاءت الانتخابات اكتسح الاتجاه الإسلامي المعركة، وأصبح المحبوب عبد السلام أول رئيس للاتحاد من حركة الاتجاه الإسلامي في تاريخ جامعة القاهرة الفرع.

شعرت بأن مهمتي في جامعة الفرع قد انتهت، وأن الأمر أصبح متابعة وتنمية. وربما كان ذلك كذلك شعور القيادة التنظيمية، كما أنني كنت أحس بأن الأوان قد آن لألتفت لشخصي، فقد جاوزت الثلاثين وأنا بلا وظيفة أطل منها على الحياة، مجرد متفرغ تحت الأرض. زملائي تزوجوا وأنجبوا، بعضهم هاجر للخليج، وبعضهم للدراسات العليا في أمريكا. وكنت أتساءل إلى متى سأظل مثل اللاجئين بدون بطاقة وبدون عنوان وبدون ترتيب لأوضاع المستقبل. صحيح أنني عديم الاكتراث، ولكن ليس معنى لك أنني لا أقاسي ولا أخطط. فثمة مشترك إنساني في البحث عن دور ووظيفة وزوجة. وقررت أن آخذ إجازة من العمل التنظيمي الذي ظللت مستغرقاً فيه تماماً في الفترة من ٦٨- ١٩٨٠م. ولذا حينما طلبت مني القيادة الانتقال من مكتب الطلاب إلى مكتب الأقاليم كمسئول متفرغ عن كردفان اعتذرت، وكنت أحس بأنني أصبحت في وادٍ آخر.

المهم لزمت منزلي بالهجرة في أبي روف، ولم يكن ثمة قارع في الصباح سوى سيف الدين محمد أحمد، الذي كان يأتي صباح كل يوم بعربته من أركويت لينزل زوجته الطالبة حينها بكلية التربية، ثم بعد ذلك يمر عليّ بالمنزل ليأخذني إلى مكتب تجاني أبو جديري. حيث أصبحت مسئول الحركات الإسلامية في أمانة العلاقات الخارجية، ولم يكن عمل المكتب يستوعبني، حيث كان يتطلب العمل السفر إلى الخارج، وهذا لم يكن يحدث أكثر

من مرة أو مرتين في العام. لذا فقد كنت أتشاغل بالقراءة وجمع المعلومات عن الحركات الإسلامية، وأحياناً الانقطاع في المنزل للتأمل، وربما اكتفيت بالوجبة الواحدة التي هي عبارة عن صحن فول. أو ربما مرّ عليّ الأخ بهاء الدين حنفي الذي كان يملك سيارة فدخلنا أحد مطاعم الخرطوم التعيسة، وكان ثمن الصحن ستة صاغ. يقوم بدفعها بهاء الدين. الذي كان يعمل مدرساً غير متفرغ في أكثر من مدرسة، وكذلك في الجامعة الإسلامية.

وكان كثيراً ما يخرج من المطعم متوتر الأعصاب منفعلاً بقضايا لم تكن أبداً واردة في أولوياتي، مثل سلوك الجرسون، أو عدم نظافة التربيزة... الخ.

وذات يوم مرّ عليّ سيف الدين فحدثني عن منح في الولايات المتحدة التي موّلها بعض المحسنين، فأبديت زهدي فيها، ثم جاءني مرة أخرى بأن هناك إعلانات عن وظائف باحثين في المركز الإسلامي الإفريقي، ولم أكن أعرف عن المركز الإسلامي إلا أن الأخ حاج نور قد جاء من نيجريا وأخذ يعمل فيه. وكانت عندي حساسية ضد كل مؤسسة منسوبة إلى الإسلام، لأنني كنت أحس بأن هناك استغلال لهذه التسمية، كما أن المؤسسات الدينية ذاتها كانت تعكس نوعاً من التخلف، ونمطاً من المظهر لا يشجع على الانتماء إليه.

لم أهتم بقضية التقديم للمركز إلا حينما قابلت الأخ المعتصم عبد الرحيم. الذي كان يعمل بالمركز، وكان حينها يعتبرني شيخاً له. ولم أكن أدري مدى جديته في ذلك. المهم قابلته وقلت له قيل أن هناك وظائف باحثين فأرجو أن تكتب لي طلب تقديم. لعله فعل ذلك. ولكن المهم اسمي لم يظهر في كشف المعاينة، ووجدت ضابط العلاقات العامة - حينها عبد الحفيظ - والذي كان يدخل الطالبين للمعاينة حسب ترتيب أسمائهم في الصحيفة. تقدمت إليه قائلاً: أن اسمي ربما قد سقط، وأنني قادم للمعاينة، ولقد تعجبت حينما أمسك بالقلم وكان أحمراً وقال: ما اسمك؟ قلت: (حسن مكي)، فكتبه في ذيل القائمة. ثم جلست أثرثر مع طالبي المعاينة، ولما فرغوا من معاينتهم دخلت على القائمين بأمر المعاينة. ولدهشتي وجدت قاعة يتوسطها د. الطيب زين العابدين، ود. عبد الرحيم علي، ولم أدر ما أفعل؟ أأضحك؟ أم أجلس؟ أم أتصنع الجدية؟ لا أدري ماذا قلت وماذا قالوا؟ لأنني من كثر ما حكيت معهم في سابق عمري لم أدر ماذا قلت!.

وبعد أيام قابلت د. الطيب الذي أخبرني بأنه قد تم اختياري مع آخرين لتأسيس شعبة البحوث بالمركز، وأن مرتبي سيكون ٢٨٦ جنيهاً، وكدت حينها أقع قائلاً: فقط!!! حيث لم

يكن مرتبي يعادل في التنظيم ربع هذا المرتب، كما أن الوظيفة راقت لي، لأنه من الناحية العملية لم يكن ثمة رئيس سوى الصديق د. عبد الرحيم علي نائب المدير حينها للشئون العلمية، ولكن بدأت مشاكلي إذ قبل أن أستلم عملي طلب مني السفر للمغرب، فأعلمتهم أنني سأتأخر شهراً مما أثار ضحك د. الطيب المعهود فيه الجدية قال (هو بدينا معاك متين يا حسن مكي!! نستاهل نحن الأخدناك).

المهم سافرت للمغرب العربي، وتعرفت على وضع العمل الإسلامي، وقابلت عدداً من رواده الذين حكوا لي ظروفهم الصعبة، وكنت أتعجب حينما يقولون بأن أملهم معقود على السودان، ومن العجيب أنه رغم استشراء داء اليسارية في ذلك الوقت في بلاد المغرب، إلا أنه من المعروف أنه لم تنهض دولة ذات شأن في المغرب، إلا على أساس المشروعية الدينية (الدولة الفاطمية، ودولة المرابطين، ودولة الموحدين بالإضافة إلى الحركة السنوسية. وانتهاءً بدولة الملك محمد الخامس التي استندت إلى المشروعية الدينية)، ولذلك ظلت السلطات السياسية في المغرب تتوجس من الحركات الدينية، وتبطش بها حتى لا تنال من مشروعيتها، وكانت تطلق يد الحركات اليسارية لأن الأفكار العلمانية ما كانت تشكل خطراً على بنية ومنهجية الدولة.

شخصيتان أو ثلاث تعرفت عليهما في ظروف المصالحة الوطنية فتوثقت الصلة. أولهما أحمد عبد الرحمن الذي تعرفت عليه في منزل د. الترابي فور عودته من الخارج. ونمت هذه العلاقة على اختلاف السن والمزاج. والشخصية الأخرى د. التجاني أبو جديري، وقد توثقت علاقاتنا وأصبح مكتبه متكئاً كلما هدتني المشاوير، كما أصبح بيته واحة أستظل بها، وأصبحت ممثل التجاني ورسوله إلى الخارج، وحينما وقع الانقلاب العسكري في عام ٧٩ - ٨٠ في تركيا، والذي استهدف من ضمن ما استهدف. طلب مني د. التجاني السفر لتركيا للتعرف على الأوضاع وتبليغ تضامن الحركة لنجم الدين أربكان، وكنت قد طوّرت معرفتي بحزب السلامة، حيث أنني اخترت موضوع رسالتي في الماجستير حركة البعث الإسلامي المعاصر.

وتحمس مشرفي، وكان حينها: بروفيسور يوسف فضل عميد معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية لتمويل البحث الميداني الذي غطى إيران وباكستان وتركيا، وقد تجولت في هذه المناطق مدينة مدينة بالعربات والقطارات، وتعرفت على معظم رواد العمل الإسلامي

شيوخاً ومجاهدين في باكستان، وذهبت إلى بيشاور، وعشت مع المجاهدين، وتعرفت على شيوخهم، وكانت حركة الجهاد في بداياتها. ومن بيشاور سافرت بالقطار على كويتا. ومنها بالقطار متجاوزاً صحراء بلوخستان، وكنت متشوقاً لمعرفة متاهات هذه الصحراء، والتي كثيراً ما قرأت عن انتشار العصابات الشيوعية فيها لإقامة دولة بلوخستان في خطوة لتمزيق إيران وباكستان وأفغانستان، ومنها دخلت مشياً على الأقدام ثم الباصات إلى زهدان في إيران، ودخلت إيران في عنفوان ثورتها، واستضافني السفير علي عبد الرحمن النميري في منزله في طهران.

بدأت التعرف على قادة الثورة الإيرانية كالرئيس مهدي بازركان الذي استضافني في مجلس الوزراء ثلاث ساعات، ورئيس حزب جمهوري إسلامي المرحوم محمد بهشتي، وآية الله شريعة مداري، ورئيس الوزراء رجائي، ود. كاشاني وآية الله خلخاكي، ولقد استهوتني الثورة الإيرانية، وشدت خيالي، وعدلت موضوع رسالة الماجستير لتقتصر على إيران. واعتبرت ما جمعته من وثائق عن الدول الأخرى هدية لإرشيف التنظيم.

ومن زهدان وبالحافلات عبر طهران حتى استنبول، ومن هناك بالطائرة إلى القاهرة. حيث اعتكفت لفترة في معهد الدراسات الاستراتيجية التابع للأهرام، وتحصلت على ما في جعبتهم من وثائق عن العمل الإسلامي في مصر، وكان مدير المعهد حينها السيد ياسين أكثر من كريم، حيث منحني عدداً من إصدارات المعهد، كما طلب مني تقديم عدد من المحاضرات عن الثورة الإيرانية، ولدهشتي وجدت الباحثين بالمركز جاهلين بمغزى الثورة وملامستهم لها سطحية ولا تتجاوز إسقاطات الإعلام الغربي عنها.

ما يهم تعهدت لدكتور أبو جديري بالسفر في خلال يومين لتركيا. وقطعت تذكرتي على شركة طيران الشرق الأوسط، ولاحظت أن خط التذكرة الخرطوم - جدة - بيروت - إستنبول، وكان الموسم موسم حج، فقلت: لماذا لا أحج؟ خصوصا أنني قد رأيت رؤية مفادها أني سألت امرأة عجوز وسألتني عن منطقة، فقلت لها: هذا هو المشعر الحرام، فأولت ذلك أنني أحج هذا العام.

ذهبت إلى السيد أحمد عبد الرحمن في مكتبه، وكان مسئولاً عن الحج، بحكم أنه وزير للشئون الداخلية طالباً منه تأشيرة حج، خصوصاً أنها لا تكلفه شيئاً، ولكن أحمد عبد الرحمن أصر على أن لا يعطيني تأشيرة بحجة أن التأشيرة (بالقرعة)، وحسمت النقاش قائلاً (الله غني عنك).

نميري والقوانين الإسلامية:

تخلّف الفكر الإسلامي عن اكتشاف آيات الله وسنن الله – وتخلّف المسلمين ليس فقط في مجال العلوم التطبيقية، ولكن تخلفهم الكبير أو تخلفنا الكبير يكمن في عجزنا عن فهم النصوص وفهم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، كان متلقياً للوحي. وكان مشرّعاً وكان حاكماً، كان أكثر الناس امتثالاً لأمر الرب من صلاة وقيام وزهد.

هل يستطيع الحاكم المعاصر أن يتبوأ وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وهل ذلك مطلوب منه؟ أم ذلك وظيفة كل الأمة أن تحاول إقامة منهج النبوة وملء الفراغ الذي شغره من قال عنه القرآن ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ النجم٣.

هذا يقودنا إلى قضية الشورى في الحركات الإسلامية، وفهم الحركات لها، ففي مصر أمير الجماعة يتولى الوظيفة مدى الحياة، ويعاونه في ذلك مكتب الإرشاد. والشورى عندهم (معلمة) وليست (ملزمة)، بمعنى أن مجلس الشورى مجلس استشاري، للأمير أن يأخذ برأيه إن شاء. لقد خالطت أصنافاً من قيادات الحركات الإسلامية، ولم أجد عندها من فقه الشورى ما يرشحها للقيادة، ولا أزال عاتباً على الجماعة الإسلامية في باكستان. على الأخص موقفهم من الرئيس ضياء الحق، وعملهم على الإطاحة به في حركة استعادة الديمقراطية، حيث رموا بثقلهم وراء (بنازير بوتو) في وجه الرئيس ضياء الحق جرياً وراء سراب الديمقراطية، إلى أن تمت الإطاحة به في مؤامرة نسف الطائرة، لتجد الحركة الإسلامية نفسها بين بنازير ونواز شريف، ولتصبح خارج الدائرة.

سعدت حينما علمت بأنني قد اخترت عضواً في مجلس شورى الحركة الإسلامية في عام ١٩٧٨م. وفي ظروف المصالحة، وقد تمت الانتخابات في جوٍّ من السرية تحسباً من أمن النميري، وكان مجلس الشورى مجهول المصير في فترة ٦٩ – ١٩٧٨م، باستثناء قيادة الخارج نسبة لظروف السجن والمحاصرة والمطاردة.

وعقد الاجتماع الأول في منزل المرحوم محمود عبد الحفيظ في المزاد ببحري. وقليل من الأخوان من يعرف من هو محمود، ولكنه من رجال العطاء، ويكفي أنه تبرع بعربته اللاندروفر للمجاهدين في حركة يوليو ١٩٧٦م، ولا أزال أذكره وهو يضحك ويحدثني كيف ذهب واسترجع العربة بعد أن اضطر المجاهدون للانسحاب وترك العربة في العراء.

وكان الشيخ محمود يعمل تاجراً ومن حفظة كتاب الله. وقد انتقل إلى رحمة مولاه. ولي به قرابة، إذ هو من قرية أرتموقة جوار مدينة قنتي.

المهم انعقد الاجتماع، وكان عدد المنتخبين أربعين شخصاً، وجرت العادة أن يقوم المجلس باختيار حوالي عشرة أشخاص إضافيين قد يكونون في مواقع لا تسمح للأخوان بالتعرف عليهم، ووقع الاختيار على د. الطيب زين العابدين كرئيس للمجلس. وكان من أولى مهام المجلس مراجعة دستور الأخوان القديم وإعداد دستور جديد. وقد تم ذلك. كما قام المجلس بإجازة الخطط الكلية والخطة المصيرية للحركة الإسلامية. وكثيراً ما كنا نحس بالرهبة لأننا كنا نناقش ونقطع في أمور مهمة تخص البلاد والعباد. ويمكنني أن أقول إن مجلس شورى الحركة الإسلامية في الفترة ٧٨ - ١٩٨٤م كان فاعلاً ومتفاعلاً. صحيح أن القيادة هي التي كانت تتولى أمر المبادرة وتقديم المشاريع، وكانت أبداً سباقة رائدة، ولكن كذلك كان المجلس ساعياً في درب المواكب إلى أن تم بلورة الخطة المصيرية التي انعقدت عليها آمال البلاد والعباد، وهي ما عرفت بالاستراتيجية أو التمكين.

وفي أجواء ظروف الانتقال، التي كانت تعيشها الحركة الإسلامية، خرج كتابي (تاريخ حركة الأخوان المسلمون ١٩٤٤ - ١٩٦٩) والذي حاولت فيه إبراز أهم مغزى لحركة الأخوان بتعريفها بأنها حركة تغيير اجتماعي تسعى لكسب السلطة السياسية عن طريق الثورة والإصلاح، وقد أثار ذلك التعريف جدلاً كثيراً، وقام (د. خالد المبارك) باستعراض الكتاب في جريدة الأيام، وركز على دلالات هذا التعريف، خصوصاً أن الحركة كانت تعمل في ظروف حكم عسكري يحكم تحت مظلتي ما عرف بالاتحاد الاشتراكي ومجلس الشعب.

اليوم يبدو لي هذا التعريف مرتبكاً، وإنني تأثرت بمصطلحات الفكر السياسي الغربي. إذ كلمة ثورة ترجمة للكلمة الإنجليزية REVOUTION وفي اللغة العربية تقول جاء ثائر الشعر - دون تصفيف وتنظيم لشعره - والمصطلح المناسب هو (الجهاد). فالحركة الإسلامية حركة جهاد واجتهاد تسعى لبسط الإصلاح، والإصلاح ليس مجرد الترقيع والتلفيق. ولكن الإصلاح هو الرد إلى الاستقامة، إلى النموذج المنشود، والإصلاح قد يأتي عن طريق الدعوة المترفقة المبشرة التي تراعي ظروف الانتقال ومصالح العباد، وكذلك عن طريق الجهاد الذي يستصحب الأخذ بمعاني القوة والعنف والترهيب، والإصلاح مصطلح قرآني وارد عشرات المرات.

ومن أهم قضايا الحركة الإسلامية إصلاح السياسة، وأمر السياسة في الفكر السني لا

يرد إلا لماماً، ويكفي أنني لا أكاد أذكر من كتب السلف في هذا الأمر إلا كتابين، هما كتاب الماوردي (الأحكام السلطانية) وكتاب ابن تيمية (السياسة الشرعية)، وكلاهما لا يتطرق لقضية الدولة والسلطة وعلاقاتهما بالشورى والشوكة. فالأول ينشغل بالتفاصيل من وزارة تفويض إلى تنفيذ ورسوم المملكة والسلطان. والكتاب الثاني يركز على قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدخل فيه أمر العمران وبناء الشوارع والممرات.

وأهم قضية تشغل الفكر الإسلامي هي قضية تداول السلطة وانتقالها بطريقة سلمية من حاكم لحاكم، إذ انتقال السلطة في تاريخنا مكوناته: إما موت الحاكم أو اغتياله. أو الإطاحة به بمؤامرة، وقد حضرت مراسيم انتقال السلطة في أكثر من قطر غربي، حيث تمت بسلام وأسلوب حضاري، ولا زلت أعتقد أن أهم قضية تواجه سلطة الإنقاذ كانت وستظل إيجاد منهجية لتداول السلطة تتوافق مع الفكر الإسلامي، وتنسجم مع تحديات البلاد، وتستجيب لتحدي الهيمنة الصهيونية – الصليبية.

وقناعتي أن الديمقراطية الليبرالية لا تفي بذلك، إذ لا يمكن أن أساوي في أمر الإصلاح السياسي بين كل الناس، إذ كيف يستوي صوت الجاهل والعالم؟ وكيف يستوي أن يكون للجائع الذي لا يعرف مغزى التصويت والانتخابات، وللمرأة القابعة في أكناف الريف ذات حق الشخص الذي يمايز بين أنماط السلطة السياسية؟

لكن رغم ذلك لابد من إيجاد معادلة ومعيار للمشروعية السياسية لا تقوم فقط على الشوكة والغلبة، وإنما كذلك على التفويض الحر والمبايعة الشعبية التي قد تأخذ صورة أهل الحل والعقد. وأهل الحل والعقد في الدولة الحديثة هم رجال العلم من فقهاء ومفكرين، وأهل السيف والنار، وأهل المال وشيوخ القبائل ورؤساء الجماعات الدينية والكيانات السياسية. فأمر السياسة في النهاية يعني النخبة أو الصفوة، وهذا لا يعني احتقار الجماهير، إذ الدين نزل للناس كل الناس، ولكن المقصود أنه لابد من معيار لتمثيل ومخاطبة الناس، وفي القرآن قال تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر٩.

ومن التكاليف التي لا أنساها تكليف إدارة المركز الإسلامي بإعداد دراسة عن أوضاع الثقافة الإسلامية والسياسة التعليمية في جنوب السودان، وقد مكنتني هذه الدراسة من زيارة معظم مناطق الجنوب وقفت ميدانياً على مأساة السياسة التعليمية، وأوضاع الثقافة الإسلامية.

وقد كنت محظوظاً إذ بدأت زيارتي قبل اندلاع حركة التمرد، ولا زلت أذكر أن التمرد حينما بدأ في عام ١٩٨٣م إنما اندلع في منطقة أبيي، وأن قائد التمرد بدأ يذبح أئمة المساجد في محطة أريات، واستهدف مجموعات الدينكا المسلمة. وقد سافرت حينها إلى مناطق المجلد والميرم، وكان معي الأخ د. أبو شام أستاذ علم الأمراض في كلية الطب، والأخ المرحوم حسن سعد الدين، وكنا قد جئنا لكتابة تقرير عن أوضاع النازحين من الدينكا لمنظمة الدعوة الإسلامية والمركز الإسلامي، وقد مكنتني زياراتي الميدانية للجنوب وتجوالي بين الناس للوقوف على أبعاد مأساة جنوب السودان والمخطط الكنسي والصهيوني، مع انعدام أي مشروع قومي مهما كان ضئيلاً لموازنة ذلك التحدي الرهيب.

ولما لم يكن في يدي شيء غير القلم، فقد عدت من الجنوب وكتبت مذكرة عن الوضع. وذهبت إلى مكتب الوزير حينها دفع الله الحاج يوسف، وسلمته المذكرة ورجوته أن يرفعها للرئيس نميري، وحاولت في المذكرة رسم صورة للوضع خصوصاً أوضاع الآلاف من الطلاب الذين تخرجهم المدارس التبشيرية كل عام ثم يجدون أنفسهم في شوارع ملكال وجوبا وواو دون عمل أو هدف.

وتنبأت بأن هؤلاء سيصبحون وقوداً لحركة التمرد، وقد كان، حتى رأينا الأطفال يعبؤون في السفن ويشحنون إلى كوبا وغيرها، ويعودون وهم يتكلمون باللغة الكوبية والأسبانية والمفاهيم الشيوعية ليشعلوا حرب الطبقات في بلد متخلف، بينما الصهيونية والصليبية تضحك وتزيد من أوار الحريق، ومن المحزن أنها تجد النصير والمؤازرة من جزء من الصفوة الشمالية المستلبة (باسم) اتحاد القوى الديمقراطية واتحاد قوى الريف وكوكادام.. الخ.

كان عام ١٩٨٣م عاماً ذا نكهة خاصة، ففيه أيقنت الحركة الإسلامية أن النميري يناور بقضية القوانين الإسلامية، إذ بعد أن رفعت اللجنة جملة القوانين رضي لهذه القوانين أن تكون رهينة وحبيسة لخزائن القصر والنائب العام، وأخذت الحركة الإسلامية تعول على مشروعها الخاص في إقامة الدولة الإسلامية، واكتفت من النميري بظروف الحرية التي وفرها لها، والتي استغلتها أحسن استغلال في تنظيم مواردها وخطابها وخططها، ووضع اللمسات على خطتها النهائية المصرية لإصلاح أحوال العباد والبلاد وفي عام ١٩٨٢م بدأت إشارات اكتشاف البترول في السودان مما دفعني إلى كتابة سلسلة من المقالات في جريدة الأيام التي أصبح يرأس تحريرها حسن ساتي أم يس عمر الإمام؟ المهم ركزت المقالات على أمرين:

أولاً: الإشادة بتعريب مناهج الكلية الحربية، وتطرقت إلى ضرورة وضع خطة لحماية منابع البترول في بانتيو وكردفان، لأن جريان البترول يعقبه عادة سيلان متواصل من نزيف الدم.

ثانيا: صدور قوانين الشريعة في شكل أوامر جمهورية.

ولدهشتي فقد صدر بيان في اليوم الثاني من نائب رئيس الجمهورية حينها الفريق (م) عبد الماجد حامد خليل أعلن فيه عن وجود خطة متكاملة لحماية آبار البترول. وأن المساعي مستمرة لتحسين مناهج الكلية الحربية، وبعد فترة وبعد أن نسيت موضوع الشريعة وقوانينها، واعتمدت الحركة على التمويل على قوتها لقيام الدولة الإسلامية إذ بي أشاهد المشير النميري وفي كامل زينته العسكرية يتكلم من التلفزيون. ولدهشتي فقد كان الكلام عن تطبيق الشريعة وقوانين جمهورية، وصدر قانون الإجراءات المدنية. وقانون الإجراءات الجنائية، وقانون أصول الأحكام القضائية... الخ.

عنى تبني نميري لتطبيق الشريعة انقلاباً تشريعياً، وظهرت بواكير هذا الانقلاب في إراقة الخمر، ومهما قلنا في نميري فقد أكرمه الله بإراقة مخزون هواة بنت الكروم من أهل السودان من الخمور، ولا أذكر أميراً أو رئيساً فعل ذلك، على الأقل في التاريخ المعاصر الذي يبدأ من غزو نابليون لمصر.

كنت كمثلي من الكثيرين الذين أسكرتهم نشوة تبني النميري للشريعة، ولكن لم تبلغ سكرتي درجة بعض الأخوان الذين بايعوا النميري، وروجوا لفكرة حل التنظيم بعد ظهور الإمام. وقد تعمدت ألا أبايع النميري، وتملصت من كل دار يطرقها، حتى حينما كان يأتي لتخريج الضباط الدارسين بدبلوم الدعوة الخاص بالمركز الإسلامي الإفريقي كنت أتعمد التغيب عن هذه المناسبات، إذ كنت كذلك سيء الظن بالانقلابات التشريعية التي لا تستند إلى قوى فكرية ورؤية سياسية.

ولكني كذلك كنت منتشياً وقمت بكتابة مقالة في مجلة الجامعة لعل عنوانها (تحالف الجامعة والكلية)، وبينت في المقال أن مرد أزمة السودان الحديث إلى انفصام الواقع بين الجامعيين الذين يديرون دفة الحياة وحركة التنمية، وبين العسكريين الذين يحفظون الأمن ويحمون الثغور. إذ تدرب خريجو الجامعات على نمط الفكر الغربي في الفردية والتنوع والتعددية والحرية الليبرالية، وتدرب العسكريون على الضبط والخضوع والنظام والتسلسل الوظيفي، مما ربى قيم عقيدة القائد الواحد والأمر الواحد والمصير الواحد.

لذا فلا عجب أن كان ولع الجامعيون بنظم التعدد والتنوع والفردية. بينما ظل خيار العسكريين الدولة الواحدة والحزب الواحد.. الخ. وكلا النمطين نمط الجامعيين ونمط العسكريين أصوله غربية، فالأول نموذجه الديمقراطيات الغربية. والثاني نموذجه الدكتاتوريات العسكرية التي ظهرت في الغرب منذ أيام نابليون وهتلر وموسليني.

أردت في المقالة أن أقول إن تطبيق الشريعة الإسلامية يفتح الباب واسعاً لتحالف الجامعيين مع العسكريين، باعتبار أن أكبر قوة مؤثرة وسط الجامعيين تتمثل في تيار الإسلاميين. وأهم قوة في الساحة السودانية تتمثل في أهل السيف من العسكريين. لذا فقد رأيت في تطبيق الشريعة صورة من صور التحالف بين أهل القلم وأهل السيف. مما يقود لوحدة الجامعيين والعسكريين (الجامعة والكلية)، وحينما كتبت المقالة كنت أعلم أن ذلك من جنس الأماني ولكن تركت للخيال أن يجنح لعل الواقع يأتي فيصدقه!.

دارت الأيام وظهرت محاكم العدالة الناجزة، وأصبح حكم الشريعة يتقوى كل يوم في السودان. وخطرت لدكتور الطيب زين العابدين فكرة إقامة احتفال بمناسبة مرور عام على تطبيق الشريعة عسى ذلك أن يقوي من تيار الشريعة، فذهب بفكرته إلى د. الترابي. والذي طور الفكرة وجعلها تقوم على مؤتمر يدعو له قادة وعلماء الإسلام من مشارف الأرض ومغاربها للتعرف على الفكرة، ثم مسيرة جماهيرية مليونية تبارك تطبيق الشريعة. وقدم ذلك للنميري والذي وافق على الفكرة واختار لها لجنة عليا لها رئاسة رسمية بقيادة دكتور يوسف الخليفة. ورئاسة باطنية معقودة لدكتور الترابي.

وتكونت لجان عديدة فيها من الأسماء علي عبد الله يعقوب، وأحمد عبد الحليم. وآخرون. وكانت المفاجأة أن د. الترابي قدم اسمي لأكون مقرراً للجنة المؤتمر. وتلخصت مهمتي في الطواف على الشخصيات الإسلامية في أوربا وأمريكا لشرح أهمية المؤتمر ومغزاها. وتوصيل بطاقة الدعوة كذلك. بينما وقع الاختيار على دكتور يوسف الخليفة ليقوم بأمر الجولة العربية. وحينما تقابلت مع د. يوسف الخليفة لمناقشة التفاصيل قال لي: إن الرجل الذي كان سيغني عنه وعني قد مات، وكان يعني بذلك المرحوم د. التجاني أبو جديري. قال: لو أنه كان موجودا لما كانت هناك حاجة لي ولا لشخصه. وبالطبع فقد كنت أكثر من موافق على ذلك.

ولا زلت أذكر تلك الرحلة، فمحطتي الأولى كانت لندن، وفي المطار استقبلني فوج من أصدقائي، وكانوا متشوقين لمعرفة ماذا قد يكون ورائي.

كان بالمطار جماعة أسلاو كما كانوا يسمون أنفسهم حينها، الأفندي، وأمين حسن عمر. وأحمد كمال الدين، وكانوا يعملون حينها في مجلة Arabia وكان هناك غازي عتباني الطالب بجامعة قريبة من لندن نسيت اسمها، ومن لندن توجهت إلى شيكاغو وذلك في رمضان، حيث كان في استقبالي في مطار شيكاغو الصديق أحمد عثمان مكي، وهناك بواسطته وبواسطة الإمام محمد نور استطعنا دعوة كلاي وعدد من الأفارقة الأمريكيين المسلمين، ثم إلى واشنطن ولوس أنجلوس وفلادلفيا والتي استقبلني في مطارها المرحوم د. الفاروقي مؤسس كرسي علم الأديان في جامعة تمبل، وقد نشط د. الفاروقي وزوجته في الدعوة للإسلام وسط الأفارقة، وكان د. الفاروقي الفلسطيني الأصل صاحب نظرية بأنه يوم يتم أسلمة عشرة ملايين أمريكي أسود يمكننا إبطال مفعول اليهود في السياسة الأمريكية.

ولكن كان اليهود للفاروقي بالمرصاد، حيث وجد مقتولاً مع زوجته لمياء في شقتيهما. في حادث قتل بشع، علماً بأنه كان قد صار شيخاً تجاوز الستين، ولكن هل رحم اليهود الشيوخ؟

وقد ترك الفاروقي من الإنجازات للمعهد العالمي للفكر بواشنطن والكلية الإسلامية في شيكاغو ومؤلفات عديدة عن أسلمة المعرفة والتاريخ الإسلامي، وحينما قابلته قال لي: لقد طفت العالم شرقه وغربه، وأمنيتي زيارة الخرطوم، ولكن لم تتحقق الأمنية فقد سبقها الموت.

وبعد ذلك عدت للخرطوم لأشارك في الإعداد للمؤتمر واستقبال الضيوف. ومما لا أنساه أنه مر عليّ ذات يوم صديقي محمود جحا، وطلب مني مرافقته لزيارة منصور خالد الذي كان قد فقد وظيفته وأضاعت عليه كذلك ما كان يراه أعظم إنجازاته اتفاقية أديس أبابا للسلام، وما إن دخلنا على منصور وسلمنا حتى أذّن المغرب، فاستأذناه للذهاب لمسجد الصاوي للصلاة، وعقب الصلاة استلمت المجلس، ولدهشة منصور وحنقه فقد بدأت في إطراء التجربة الإسلامية، وبالغت في ذلك قائلاً: الحمد لله سودانا بقى كويس. وهنا التفت منصور قائلاً: التلفونات معطلة. فقاطعته: تلفونات إيه؟ كم عدد من يستعملون التلفون في السودان؟ نفرض خمسة آلاف ؟ وهم أقل من ذلك، كم نسبتهم في المائة؟ وماذا يقولون ويجنون من الثرثرة في هذه التلفونات؟ وهنا أراد منصور أن يستفزني فقال: على

اية حال رفيقي هذا ملحد، وهنا حدجت رفيقه بنظراتي ووجدته مضطرباً ولم يقو على أن يؤكد أنه فعلاً ملحد. حاول محمود جحا بدبلوماسيته أن يوفق ويقود النقاش، ولكن هيهات قد اتسع الخرق على الراتق.

ذكرني ذلك بموقف طريف آخر، إذ اقترح المرحوم التجاني أبو جديري، وإبراهيم السنوسي، وسيف الدين محمد أحمد، وشخصي، لصديقنا السفير الذي رحب بنا غاية الترحيب وفرح بمجيئنا ثم أردف قائلاً: إني أحبكم أهل السودان كحب الحسين لعبده، لقد بقي عبد الحسين وحده معه في كربلاء إلى أن مات دونه، أو كلاماً نحو ذلك. فأنا فقد استغرقت في التاريخ محاولاً استرجاع الحادث، أما السنوسي فقد احمر وجهه، وأما التجاني - طيّب الله ثراه - فقد أنهى المقابلة بفطانة، وما إن خرج حتى انفجر ضاحكاً، بينما كان السنوسي يتفجر غيظاً، أما أنا فلم يستفزني ذلك، إذ تعودت على جنس هذا النمط من التفكير، وجنس هذه العقلية.

دارت الأيام واتخذت من غرفة كبار الزوار مقراً لاستقبال ضيوف المؤتمر، ومع إنني كنت مقرراً للجلسات إلا أنه فاتني حضور الجلسة الافتتاحية، لأنني حضرت بعد دخول الرئيس نميري، وما يهم نجح المؤتمر نجاحاً مقدراً، وحضره مئات الإسلاميين والمستشرقين. وبلغ قمة النجاح يوم المسيرة المليونية، وحينما أخذت المسيرة تعبِّر أصابت نميري السكرة - سكرة العظمة - فقام بإيقاف الموكب وطالب فرقة الموسيقي والمنشدين أداء أناشيد تمجده نسيت مطالعها.

وفي ذلك الوقت شعرت بأن المسيرة هذه قد عنت قسيمة الطلاق البائن بين الحركة الإسلامية ونظام نميري، وأن النميري لن يسكت عن الحركة الإسلامية، لأن ما حدث اليوم يعني أن القوة التي وراء المسيرة ستأكله غداً - وعبّرت عن مشاعري لدكتور الطيب زين العابدين الذي وافقني ولكن بحذر، وبالفعل فقد كانت الليالي حبلى، فما هي إلا أيام حتى خرج النميري بتصريح يشتم فيه (أخوان الشياطين).

ثم قام النميري بعمل جملة من المتناقضات أسهمت في تقويض نظامه، وكانت أولها إقامة حد الردة على محمود محمد طه، وكنت أتوقع إلى آخر لحظة أن يقوم نميري باستصدار عفو عنه. ولكن مضى النميري في خطته فأعدم محمود محمد طه.

وكان إعدام محمود يعني بداية انهيار النظام، لأن كل العلمانيين الذين كان يحشدهم النميري كطابور احتياط ضد الحركة الإسلامية شطبوا نميري تماماً من دفاترهم. وخاب

رجاؤهم فيه، بل أصابهم الخوف والهلع أن يصيبهم ما أصاب محمود، وكذلك كان موقف أمريكا والدول الغربية التي رأت في إعدام محمود محمد طه إعداماً لكل القيم التي يقف من ورائها الغرب، ويروّج لها الفكر الغربي. وكنت في قرارة نفسي مقتنعاً أن إعدام محمود يمثل نهاية النظام.

وتوافق ذلك مع مشروع نميري لتهجير الفلاشا، وكأنما أراد النميري أن يكسب الرأي الإسلامي بإعدام محمود محمد طه، ويكفِّر عن ذلك أمام الرأي العام العالمي بتهجير الفلاشا. وقد تقبل الإعلام العالمي الرشوة، وسكت عن نظام نميري لتأمين سلامة تهجير يهود الفلاشا. ولكن قامت الحركة الإسلامية بكشف أسرار تهجير الفلاشا عن طريق صحافة الحائط الجامعية، وكانت حينها لها قراؤها من داخل وخارج الجامعة. وشاع أمر التهجير داخلياً وخارجياً، وأدت فضيحة الفلاشا إلى شيوع الإحباط وسط عناصر وفاعليات النظام، وأصبح نظام نميري جاهزاً للذبح من الناحية العملية.

وجاء نائب الرئيس الأمريكي جورج بوش لزيارة السودان في منتصف مارس ١٩٨٤م. وتسابق الرئيس نميري ونائبه لكسب وده، وشاع في دوائر النظام أن من يحظى بمباركة بوش سيكون هو الرئيس، ولما كانت أمريكا قد قررت شطب نميري بسبب إعدام محمود والشريعة، فقد سعى نميري لتأكيد ولائه لواشنطن واستجاب لما طلبه بوش. حيث قام بمحاولة لتصفية مشروع الشريعة والمصارف والمؤسسات الإسلامية، كما فتح المجال من جديد لمزيد من التهجير لعناصر الفلاشا، كما استعد نميري للسفر لأمريكا يقضي فيها شهراً كاملاً، وكان نائبه عمر محمد الطيب قد سافر قبله لأمريكا وحظي بمقابلة رجال المال والأعمال.

ومهما يكن لم يكن متوقعاً أن يصل نميري في عدائه للحركة الإسلامية مثلما وصله في تلك الليلة، ما زلت أذكر حينما أيقظني أهلي بعد منتصف الليل لمقابلة طارق عرفته على الفور فهو شاب يعمل في بيت الترابي.

وجاءني بنصف عبارة (الترابي قال ليك اعتقلوني) وحاولت أستنطق الشاب لأعرف المزيد، ولكن لم يكن في جعبته غير أن الترابي غادر البيت في صحبة عدد من رجال الأمن، ماذا أفعل بمعلومة من نصف عبارة، وكان قراري أن أشرك كل من يتيسر لي الاتصال به من قيادة التنظيم في أمر العبارة الآن. وأنا أسابق رجال الأمن إليهم وطلبت

من زوجتي إخراج عربتي بينما انهمكت في التخلص من بعض الأوراق، وحينما أشرقت شمس اليوم الثاني كانت العربة قد مسحت كل الخرطوم واتصلت بكل القيادة، وكنت لا أتوقف عند أخ إلا لطلب مزيد من البنزين، وكان أحياناً كذلك أعطي المعلومة ومعها البنزين.

وفي تمام العاشرة صباحاً اجتمعت القيادة التنفيذية للحركة الإسلامية لمناقشة مرحلة المجابهة التي فرضها نظام نميري - وكنت حينها منهكاً وجالساً في منزل د. غازي عتباني الذي قاسمني طواف الليل. وإذا بالداخل مبارك الفاضل المهدي وكان شامتاً. واستغرب وجودي ولماذا لا أحاول أن أجد لنفسي مخرجاً، وتنبأ بأن الكوادر الإخوانية ستعتقل واحدة بعد الأخرى. ولم أنبس بكلمة رد. وجمعت قواي وصبرت بينما انطلق هو في تهكماته وسخرياته.

العيد في السجن:

الأعياد لها مذاقها الخاص في السجن وكذلك رمضان، لقد صمت ثلاثة رمضانات ما بين كوبر ودبك، وكذلك أعتقد شهدت خمسة أعياد، وقبل يوم من العيد تجد الكل مشغولاً أما بترقيع سرواله وقميصه أو حتى حذائه، وما العيب في ذلك، فقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يخسف نعله، ويرقع ثوبه من دون سجن. ومع أن علاقة المسجونين بإدارة السجن تنتهي عند الخامسة مساءً ثم لا يعودون حتى شروق شمس اليوم الجديد. إلا أن معشر المساجين رتبوا أموراً كثيرة على الاتصال بالخارج فهربوا جهاز راديو صغير وجعلوه عهدة مع أحد منهم وهربوا أقلاماً وأوراقاً، أما صاحب الراديو فإنه يختار المكان الهادي الآمن لسماع الأخبار وتزويد الآخرين، وأحياناً يكون هذا المكان الحمام أو أن يندفن تحت البطانية متصنعاً التعب أو المرض، ثم يعود ليفاجأنا إما بخبر العيد. أو موت فلان. فلقد سمعنا بموت المرحوم د. جعفر محمد علي بخيت، وأعتقد كذلك المرحوم العميد عمر الحاج موسى في السجن، وكذلك دارت حرب أكتوبر في مصر ١٩٧٣م ونحن في السجن.

وما يهم، السجن له آلياته في نقل الأخبار، وأحياناً يكون السجن أحسن حالاً في رصد الأخبار من الأجهزة الأمنية، لأن الانقلابيين والذين يخططون للانقلابات إنما يرمون في السجن، وهناك يأخذون في ترسيب الأخبار، ولا أزال أذكر ذلك اليوم. إنه العيد الكبير، وكان يومئذ السجان رحيماً، ففتح أبواب السجن على بعضها. وأخذ الشباب يكبِّر استعداداً للصلاة؛ ولكن أين د. عبد الحميد صالح، لقد أغلق عليه باب غرفته في المستشفى. هيا بنا إليه لنرفع من معنوياته، وبعد طرق وحوار وشد وجذب ارتدى الدكتور الثائر ملابسه وتقدم للصلاة، وبعد الصلاة تقدمت فرقة المنشدين:

يا منى النفس اقترابا	حسبنا منك اغترابا
أين منا الأنس والنظرات	والثغر العذاب

وينفجر د. عبد الحميد باكياً، لقد ذكره المنشد بابنه الذي مات في حادث حركة في أوربا. ثم نعود إلى أنواع النقاش والحوار، فها هو شيخ فلان يرفض إقامة صلاة العيد بل وصلاة الجمعة بحجة أن المنطقة محصورة ومحظورة، والمالكية لا يجيزون أداء الصلاة

في الأماكن المحصورة. وحسب مفهوم الشيخ فكي تجوز صلاة الجمعة لابد لإدارة السجن ان تفتح أبواب السجن وتعلن الآذان، ولكن هيهات. ولذا فلا عجب إن رأيت جمعة مقامة هنا وآخرون يصلون في الظهر هناك، ثم ها هو يوسف فضل الله يعثر على فتوى لابن تيمية تجوز إقامة صلاة الجماعة، ولكن ابن تيمية صلى ركعتين بدلاً من صلاة العيد بتكبيراتها وخطبها، وأنا أسال ولكن ابن تيمية كان في الحبس الانفرادي كيف يصلي العيد فذاً؟ ولمن يخطب؟ ألنفسه؟؟.

بابكر حنين يطلع علينا بمونولوج مطلعه سبحة رمضان ثلاث وثلاثين حباية ثلاثين رمضان وثلاثة الأعياد.

وتم نقاش فقهي حاد بمفاصلة الشيوعيين ومقاطعتهم، وعدم جواز مؤاكلتهم. وآخرون يخرجون علينا بفتوى بعدم محادثة إدارة السجن أو تقديم مطالب بحجج ما أنزل الله بها من سلطان، وهكذا تمضي الأيام: جلسات للسمر، وجلسات مدارسة للكتب والتجويد. ومناقشة التاريخ الإسلامي وتاريخ السودان ولم لا؟ ومعنا الجهابذة الذين عاصروا مؤتمر الخريجين وعلى رأسهم الأستاذ أحمد خير.

ثم يعرج الحديث إلى اتفاقية أديس أبابا: إيجابياتها وسلبياتها، وطالما وصلنا لهذا الحد. فلا بأس من أن أواصل في الاستطراد عن جهود الإسلام الجارية اليوم ما بين أبوجا وكمبالا ونيروبي، وأتساءل ما هي دواعي جون قرنق لإلقاء السلاح، وأقول لأن الحرب بالنسبة له أصبحت مكلفة وبدون مكاسب، كما أصبح غير قادر على السيطرة على المقاتلين. كما أن يوغندا ترى رأي العين أن استمرار الحرب ليس في صالحها خصوصاً بنهاية هذا الصيف ستكون القوات المسلحة السودانية على الحدود اليوغندية في كايا ونمولي وكاجوكاجي. صحيح أن جون قرنق سيظل مواجهاً بضغط الراغبين في استمرار الحرب من معارضة شمالية ودول خليجية ونيلية وإسرائيل، وستحاول هذه القوى إغراء جون قرنق بشعار المراهنة على سقوط النظام، وأنه ما عليه إلا أن يصبر قليلاً وسينهار النظام، وقد بدأت المقدمات: صفوف البنزين، انعدام الشيء الفلاني... الخ. وهم يحاولون التشبث بالوهم. ولا يعرفون كم تكلفة هذا التشبث من الموت والتشريد والدمار والضحايا من الأبرياء.

وتظل هناك أسئلة: ماذا تريد الصفوة الجنوبية الصامتة وماذا يريد ريك مشار؟ وماذا يريد وليم نون؟ وماذا عن مجموعة علي تميم؟ وأحمد الرضي؟ وكيف يمكن رصد كل هذه

المجموعات: وحدويون، فوضويون، مطالبون بتقرير المصير، انفصاليون في مسبحة الفدرالية. إن كان جون قرنق صادقاً في توجهه نحو السلام عليه في الفترة المقبلة ألا يسعى لدور في جنوب السودان، وأن يكتفي بدور قومي في إطار السودان الكبير، خصوصاً هذا السودان الكبير يعيش فيه ٧٠٪ من أهل الجنوب، إذن دور قرنق على المستوى القومي قد يكون مطلوباً، أما على المستوى المحلي في الجنوب فلن يزيد النار إلا سعيراً.

ثم سؤال متطلبات الإسلام، ومعايير التعاون الدولي لإعادة بناء الجنوب، ودور الإسلام والمسيحية "الأمة والكنيسة" ثم ما هي فرص السلام حتى لا نعود للحرب والانفجارات؟.

وأعود لقصتي في جنوب السودان، هل سمعتم بأحمد عبد الكريم، لقد كان يعمل كمدير للمعهد العلمي في جوبا، وكان أحمد هذا خير معين على تفهم لغز الجنوب. وما زلت أذكره وهو يقول اليوم دبرت لك اجتماعاً كبيراً في حي (دنقر شوفو)، ثم يقوم بشد مسدسه حول إزاره، ما هذا يا أحمد؟ يقول: المنطقة غير آمنة ولابد أن نذهب للاجتماع مسلحين، وهكذا كانت بدايات العمل في الجنوب. ويستغرب الكثيرون حينما نقول لهم إن المسلمين في الجنوب أكثرية، فمنطقة راجا منطقة إسلامية، بل وكانت فيها دولة إسلامية، وقطاع أويل/ بابنوسة قطاع معظم أهله من الدينكا المسلمين، وفي الاستوائية مناطق ياي وكاجو كاجي وغيرها مناطق إسلامية، بالإضافة إلى الوجود الإسلامي. ومن الأفضل الاعتراف بهم، وإلا دخل المسلمون كذلك الغابة بدلاً من أن يصبحوا ضحايا لاتفاقيات السلام.

أعود إلى نهاية مارس ١٩٨٤، بعد انقلاب الرئيس نميري على الأخوان، حيث وجدت نفسي مرة أخرى مشرداً طريداً خائفاً أترقب، وزادت المصيبة أن خيط اتصالي انقطع حتى بالقيادة، فأصبحت محروماً حتى من المعلومات، وأخذت أنسق مع ما من شأنهم مثلي – د. عبد الرحمن محمد سعيد – ولكن عبد الرحمن فجأة انضم إلى التيار العام، وأخذ يقود المظاهرات ويحرك الشارع مع آخرين. ثم جاءني د. مصطفى نواري وزوجته وقالا لي: لقد أخلينا لك منزلنا، ونستطيع أن نأتيك بالطعام على فترات.

وبالفعل فرحت في البداية بالعرض، ولكن ما إن أطلت شمس اليوم الثاني حتى أخذت مفاتيح المنزل وسلمتها لمصطفى نواري شاكراً، إذ كيف يستقيم أن يكون حصاد الجهاد أن يندس كل واحد منا في ركن، وتذكرت حال المسلمين حينما هجم عليهم التتر، وكان التتري

يقول للمسلم يا مسلم خذ هذا الحجر على عاتقك وانتظرني حتى أذهب وآت بسيفي لأقطع راسك، وطأطأ الكثيرون رءوسهم لهذا الأمر الغريب، إنه انتحار جنوني، وردد بعض المسلمين قول الشاعر:

يا هاربين من التتر لوذو بقبر أبي عمر

ولما لم يكن هناك ثمة قبر ألوذ به، فقد قررت الطواف على الإسلاميين والمتعاطفين، وبدأت بالأستاذ أحمد سليمان الذي رحب بي واتفق معي على أنه لا مانع من الاتصال بالمسئولين لمعرفة نوايا النظام، ولكن كانت رؤيته أن النميري ماضٍ في خطته لإجهاض المشروع الإسلامي والتخلص من الإسلاميين، لذا لابد للإسلاميين من أن يجتهدوا ويتخلصوا من الرجل.

ما يهم، رجعت إلى منزلي ومكان عملي، بينما انشغل النظام وأمنه بثورة الشارع، كما برزت اجتماعات الضباط وضغطهم على قيادتهم لاتخاذ مبادرة في اتجاه الشارع، وبرز حينها من الأسماء المتحركة اسم الضابط عمر حسن أحمد البشير، ثم توالى ضغط الشارع والإضراب السياسي، إلى أن جاء الفرج بصوت المشير سوار الذهب.

كنت في غاية الغيظ والحنق على سلوك القيادة إبان الأزمة، وكانت القيادة راضية كل الرضا عن خطتها وسلوكها إبان الأزمة، لذا فلا عجب أن كان لقاء مجلس الشورى بعد الأزمة عاصفاً. وانتهت الأزمة، وتصافت النفوس، واعتذرت لنائب الأمين العام السابق. لأنني أخطأت في حقه حينما وصفته بأنه يرتكب جريمة تضليل مجلس الشورى، وانتهى الاجتماع، ولكن كان من نتائجه إعفاء نائب الأمين العام، وأصبح اختيار الأمين العام الجديد من حق مجلس الشورى بدلاً من التعيين من قبل الأمين العام كما كان في السابق. وحينما أستعيد صفحات تلك الأيام أجدني قد أخطأت في حق نائب الأمين العام السابق، إذ لم تكن كل المفاتيح في يده، ومهما يكن فقد طويت تلك الصفحة، وبدأت صفحة جديدة في العمل الدعوي والسياسي في أعقاب انهيار إمبراطورية النميري.

كان من الطبيعي أن يحدث تغيير نوعي في حركة العمل الإسلامي بعد الانتفاضة. لقد سعى الإسلاميون طيلة سني نميري الست عشرة للحصول على ظروف حرية تمكنهم من حرية الحركة والخطابة والسعي بين الناس، وها هي الانتفاضة تمكنهم من ذلك، وكانت أوليات وجدول أعمال الحركة الإسلامية واضح، ويقوم على:

أولاً: التحول إلى حركة شعبية جماهيرية واسعة تستطيع استيعاب الشعب السوداني

بمختلف ملله ونحله وطوائفه، ولذلك تم إعلان تكوين الجبهة الإسلامية القومية كإطار يستوعب كل فاعليات العمل الإسلامي، وقد أثارت كلمة قومية إشكالية، فنظر لها القوميون كتنازل من الحركة الإسلامية، واعتراف بفاعلية الخطاب القومي، وكان البعض يخطئون فيقدمونها على إسلامية (الجبهة القومية الإسلامية)، وفي تقديري أن كلمة قومية هي اصطلاح للإشارة إلى شمولية الجبهة وسعتها واستيعابها لكل الفصائل والحركة السودانية، إذ أن الإطار الموضوعي للعمل الإسلامي حينها كان السودان.

وفكرة التحالف الشعبي قديمة في أدب الحركة الإسلامية السودانية، وعمرها يتجاوز الثلاثين عاماً، حيث تكونت في عام ١٩٥٥ الجبهة الإسلامية للدستور الإسلامي، وفي عام ١٩٦٥ جبهة الميثاق الإسلامي، وفي ١٩٨٥ الجبهة الإسلامية القومية.

ثانياً: الاستجابة لتحدي جنوب السودان وإقامة حركة إسلامية ذات جذور محلية وقادرة على النمو والعطاء الذاتي، ومجابهة تحدي الإسلام في جنوب السودان وقادرة على العطاء والجوار والالتقاء مع حركة الإسلام في الشمال.

ثالثاً: تجاوز الحركة السياسية السودانية التقليدية برموزها وتكويناتها وأحزابها، وبالفعل فقد سعت الحركة السياسية السودانية المعاكسة لمحاصرة وعزل الحركة الإسلامية السودانية فيما عرف بالتجمع الوطني الحزبي والنقابي، والذي كان يزينه في الظاهر الحزبان الكبيران، وتسيطر عليه بالفعل العناصر اليسارية والشيوعية والاستخبارات الأجنبية، وكانت خطة التجمع بسيطة وتقوم على الآتي:

❖عزل ومحاصرة وخنق الحركة الإسلامية وإبعادها عن السياسة، بوضع قانون انتخابات يرضي القوى التقليدية والقوى الحديثة، ويرضي الحزبين، وكذلك النقابات التي يسيطر عليها الشيوعيون واليساريون.

❖إقامة صفقة سياسية مع جون قرنق تقوم على إضعاف الجيش السوداني وإدخال جنود التمرد في إطار الجيش، تمهيداً لعملية عسكرية تقود لإقامة دولة يسارية ترضى عنها أمريكا ومصر، وتكوين حكومة شراكة بين قوى التمرد واليسار والأحزاب التقليدية في سودان لا ديني وعلماني.

ما يهم، استطاعت الجبهة الإسلامية القومية أن تعزز قدراتها، وأن تبرز كنصير للقوى الإسلامية والوطنية في القوات المسلحة، وتأكد ذلك في مسيرة (أمان السودان)، وفي

ورقة الجبهة المعنونة بـ(ميثاق السودان). كما أحسنت مخاطبة المجلس لعسكري الانتقالي. واستطاعت عبر التفاهم معه تمرير خطها السياسي، وإجهاض مخطط ضرب الشريعة الإسلامية، ومخطط كوكادام، ومخطط تخصيص دوائر للقوى الحديثة. وبالنسبة لي فقد كانت الرؤية واضحة، وعملت مع غيري لتعزيز هذا التوجه بالعمل المنبري والخطابة والكتابة في الصحافة (الراية) (ألوان) (السوداني) (الشرق الأوسط). وقد نجح خطاب الحركة الإسلامية وصادف نجاحاً وسط أهل المدن والعسكريين والمغتربين، وستظل هذه أهم فئات العمل السياسي في السودان الحديث.

ولما جاءت الانتخابات. علمت أن اسمي سيكون في دوائر الخريجين. ولكن جاءت الموازنات فأخرجت اسمي للمصلحة (القومية)، ولم يعني ذلك بالنسبة لي شيئاً، حيث كنت حينها قد بلورت مشروع السفر إلى بريطانيا، وذلك لاعتبارات شتى منها:

- محاولة إيجاد العلاج لابني الكبير الذي قرر الأطباء ذهابه لبريطانيا لفترة طويلة.
- الاستجابة لعرض المؤسسة الإسلامية بـ(لستر)، والتي ألحت عليّ في القدوم للعمل معهم كباحث في قسم (العقائد)، وما زلت أذكر دكتور خورشيد أحمد نائب أمير الجماعة الإسلامية بباكستان، والذي جاءني حيث كنت أسكن في بحري وعاتبني قائلاً: (نحن ظللنا ننتظرك عاماً كاملاً، كما أنني حدثت دكتور الترابي)، وما لم أقله له أن دكتور الترابي لم يحدثني أبداً في هذا الموضوع.

رسالة الدكتوراه وحسم أمر الدراسة:

أجلت سفري إلى أن انتهت الانتخابات، وتأكدت مكانة الحركة الإسلامية، حيث أحرزت قصب السبق وسط المتعلمين، وأكدت الحركة الإسلامية أنها حركة المثقفين والمتعلمين، كما نالت ٢٠٪ من جملة أصوات الناخبين، وكان جل مؤيدي الحركة الإسلامية من أهل المدن، وقصة الحضارة هي قصة المدينة، ولذلك لخص القرآن خبر الحضارة في مسار حياة المدينة ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ هود١٠٠. والقرية هي المدينة.

حينما غادرت السودان كنت متفائلاً بمآل أمور الحركة الإسلامية، فهي قوية إعلامياً واقتصادياً وتنظيمياً، كما أن تجربة البرلمان ستوفر للحركة عشرات المتفرغين، وكذلك فإن تكالب القوى السياسية على د. الترابي وحرمانه من دخول البرلمان سيجعل القيادة تركز على التخطيط المصيري بدلاً من إهدار الأوقات بلا طائل في مناورات البرلمان المغرية والمستهلكة لأزمان وعقول الرجال.

ولا زلت أذكر أنني حينما ذهبت للسفارة البريطانية كان رفيقي للسفارة محمد الهاشمي الحامدي، من شباب تونس، وقد توثقت صلته بي حينما أطلعته على خبر مغادرتي، قال لي: والله لن أبقى بعدك، وسألحقك في بريطانيا وسترى. وحينما أكملت إجراءاتي من نافذة السفارة وقلت للهاشمي: هيا بنا، قال لي: أنتظر. وتقدم من مسئولة السفارة ودخل معها في حوار ثم جاءني قائلاً: لقد أخبرتها بأني أحمل وثيقة سفر لاجئ، وإن كان بالإمكان منحي تأشيرة إلى لندن؟ فأجابته: بأن ذلك ممكن. وقال لي الهاشمي: استعد سآتيك فوراً، وعددت ذلك مجاملة، ولكن ما هي إلا أسابيع بعد استقراري في لستر حتى رنّ جرس الهاتف، وإذ بالحامدي قائلاً: حسن أنا في مطار هيثرو صف لي الطريق. وفعلاً جاء ونزل معي إلى أن دبر أموره ثم استقر نهائياً هناك، وتزوج من الجزائر، وما يزال ينتظر الفرج حتى يعود لتونس.

طابت الحياة في لستر ومنحتني إدارة المؤسسة الإسلامية منزلاً كبيراً في الحي الإنجليزي بلستر، مما أدخلني في حرج مع المجتمع الإسلامي الذي كان يريدني في إسكانهم، ولكني قلت: الخير فيما اختار الله، فلنساكن الخواجات عسانا أن نعلم من

خيرهم شيئاً، فليست المعاشرة والتفاعل والتداخل كالملامسة السطحية.

وبالفعل توثقت علاقتي بالأسر الإنجليزية في Lanse down Road وأصبح أطفالهم يدخلون علينا، ونساؤهم يأتين للثرثرة معنا، ويأكلون طعامنا، ويدعوننا لمنازلهم، وكنت أحياناً أسافر وزوجتي ونترك أحد أطفالنا معهم، وكانوا لا يضيقون ولا يتبرمون بذلك، ومن عادات الإنجليزي الطيبة إنه إذا التزم بأمر أداه مهما كلفه ذلك.

ولكن لاحظت كذلك تمزق المجتمع الإنجليزي، وتبخر القيم الدينية والأسرية، وما كانت تسميه رئيسة وزرائهم تاتشر ضياع القيم الفكتورية. وأضرب لذلك مثالاً: فكل جيراني من الإنجليز لم تكن بينهم عائلة متكاملة، أي فيها الزوج والزوجة والأبناء، فجارتاي عن اليمين والشمال مطلقتان، وإحداهما لها ثلاثة أطفال ولكنها تعاشر خليلاً يسكن معها ومع أطفالها. والأخرى كبرت في السن ولكن تعيش معها ابنتها وكذلك خليل ابنتها. ثم جارة أخرى مسنة تجاوزت الثمانين يزورها ابنها الذي تجاوز الخمسين كل يوم أحد ولمدة نصف ساعة.

ما يهم أن المجتمع الإنجليزي يمر بمخاض تحول رهيب، من سماته اختفاء الأسرة. واختيار المعاشرة المفتوحة على الزواج، وبدأت علامات ذلك تظهر حتى على الأسرة المالكة. التي أصبح معظم أفرادها متحررين من سلطان العائلة، بما في ذلك وريث العرش جارلس. الذي فضل معاشرة خليلته وانفصل عن زوجته.

ومع أن الحياة في لستر كانت آمنة رخية، إلا أنني كنت أتشوق للسودان، وكنت أتحين الفرص لشد الرحيل متعللاً بأتفه الأعذار، ولذلك كنت أحياناً أحضر في العام مرتين. وما خفف عليّ وحشة لستر زيارات الأخوان من بريطانيا وغيرها، فقد زارني الأستاذ جعفر شيخ إدريس أكثر من مرة، وما زلت أذكر حينما أخذته إلى حديقة لستر الجميلة وكان معنا د. زكريا بشير إمام، ثم حدثته عن قضية القضايا في إنجلترا أو ما يسمى Child Abuse وهو العبث بالأطفال أو معاشرة الآباء لأطفالهم جنسياً، ما هي إلا أيام حتى وجدتني ليس فقط إماماً وإنما أصبح مكتبي منتدى للإسلاميين، وتوثقت صلاتي بالشباب المسلم القادم من السعودية والكويت وليبيا، وأصبحوا يخدمونني بسياراتهم، ويغمرونني بهداياهم، وبفضلهم تم إقامة مسجد أصبحت تقام فيه الشعائر والاجتماعات وصلوات الجمع.

ومدينة لستر مع إنها في قلب إنجلترا إلا أن طابعها أصبح إسلامياً، وربما فيها الآن قرابة السبعة أو الثمانية مساجد، وكلها تصلي التراويح بجزء من القرآن يومياً في رمضان، كما تقام

صلاة التهجد في العشر الأواخر. لذا فلا عجب أن بدأ الاحتجاج على إصدار كتاب (آيات شيطانية) من لستر ومن المؤسسة الإسلامية، ثم انتقل إلى بقية مدن إنجلترا فالعالم. وما قد لا يعرفه الكثيرون أن أول منبر عام تناول قضية كتاب آيات شيطانية كان في مؤتمر الجبهة الإسلامية في لندن عام ١٩٧٨ وبحضور د. حسن الترابي، وذلك حينما أعطينا الكلمة لدكتور مناظر أحسن مدير المؤسسة الإسلامية، وكانت كلها في كيفية رسم خطة للاحتجاج ومقاطعة كتاب سلمان رشدي (آيات شيطانية).

وحينما أطل عيد الفطر اقترحت على الشباب المسلم أن نقيم صلاة العيد في ميدان عام ووافقوا، ولكنهم احترزوا من الأمطار، فدبرنا مكاناً قريباً بديلاً إذا ساء الطقس. وبالفعل أدينا صلاة العيد في ميدان جامعة لستر غطته أجهزة الإعلام بلستر، وقاد الصلاة د. زكريا بشير إمام، كما زارني في لستر أحمد عبد الرحمن، وعلي عثمان، ومحمد محجوب هارون، كما كنا نحرص على مقابلة د. الترابي كلما مر عبر لندن.

ومن الزيارات العجيبة زيارات مصطفى عثمان، وما زلت أذكر حينما هاتفني قائلاً: ستصل زوجتي والأبناء الساعة إياها، أما أنا فتوقعوني ليلاً، ولما كنت أمقت السهر، وكنت أعرف كيف تمتد الساعات، فقد تركت باب الدار مفتوحاً، وعلقت عليه ورقة مرشداً مصطفى لمكان رقاده إلى أن نلتقي في الصباح، ولكني أحسست بحركته في حوالي الثانية أو الثالثة صباحاً، فجئته وقال لي ضاحكاً: لقد كنت في اجتماع جمعية الطلاب المسلمين التي كان يرأسها، ورأسها من قبله من السودانيين د. قرشي محمد علي، ود. غازي عتباني، إلا أن عصرها الذهبي كان كما أعتقد في أيامه.

وكنت كثير الاستعمال للهاتف من المنزل والمكتب، وجاءتني أول فاتورة بمبلغ مائة وثمانين جنيهاً إسترلينياً عن هاتف المنزل لثلاثة أشهر، وبعدها بدأت أعمل حسابي، إذ كان ذلك يعني أن أتكلم يومياً بما قيمته ألف جنيه سوداني. وممن تعرفت عليهم الباكستاني المسلم الذي يعمل في السكة الحديد البريطانية، واسمه شفيع، إذ طرق منزلي ومعه زوجته شميم، ولما دخلا عرفت أنهما مثلي مسلمين بريطانيين، ولكنهما يسكنان مع الإنجليز، ولعله قد أوصاهما بي الساكن السابق للمنزل، وهو الأمين العام لجبهة تحرير كشمير.

ما يهم، اتصلت الصلة، وازدادت المودة، وأصبح شفيع يسجل حضوراً ثابتاً بمنزلنا.

ويحضر لنا الطعام الحلال، بل قام بتأثيث جزء من المنزل على حسابه الخاص، حتى أنني أخذت ألقبه بـ(خادم الله). وكنت كلما أناديه كذلك يضحك، ولقد أهداني - فيما أعتقد - ما لا يقل عن عشرة من القمصان، وهي هذه القمصان الزرقاء التي أرتديها، والتي احتار فيها بعض أصدقائي الذين ظنوا أني لا أملك غير قميص واحد، حتى أن الصافي نور الدين رفع صوته في اجتماع قائلاً: (يا أخوانا حقو نشتري قمصان لي حسن مكي).

وفي هذا العام حينما زرت بريطانيا قمت بزيارة شفيع في منزله، ولكنني لم أجده، وعلمت من أهله أنه تقاعد عن العمل في السكة الحديد، ولكنني حادثته بالتلفون. وشفيع باكستاني مثقف، وقد استفدت منه كثيراً في تاريخ باكستان السياسي، وتاريخ شبه الجزيرة الهندية.

وفي لستر كانت هناك ثلاث أسر سودانية: أسرة إبراهيم كدام، نائب مدير مستشفى سوبا حالياً، ود. طه بكلية الفنون الجميلة، وأسرة طبيب سوداني يعمل بالخليج، بالإضافة إلى د. إمام وزوجه.

كنت أذهب إلى مكتبي أحياناً راجلاً وأحياناً بالبص الذي يقف في المحطة ٩:٣٠ صباحاً. وأعود في الغالب راجلاً بعد الخامسة مساء، والمسافة بين المنزل والمكتب تستغرق حوالي ٢٥ دقيقة، واستأذنت إدارة المؤسسة في أن أبدأ العمل بعد الفراغ من كتابة رسالة الدكتوراه. والتي كان عنوانها (السياسات الثقافية في الصومال الكبير)، وقد بدأ اهتمامي بالقرن الإفريقي منذ وقت مبكر، وهممت أن يكون موضوع أطروحتي عن (الإسلام في إثيوبيا). وذهبت لعمل المسح الميداني في عام ١٩٨٥، ولكن وجدت استحالة في ذلك، فالإثيوبيون غير متعاونين، إذ تعتبر هذه من الدراسات الحساسة التي تمس صميم الأمن الإثيوبي. بل حتى السفارة السودانية توجست مني ولم تبدر بادرة تعاون، بل إني خشيت على نفسي من أمن منجستو، خصوصاً حينما طلبت إذناً بالذهاب إلى هرر عاصمة الوجود الإسلامي في إثيوبيا. ولما كنت متعلقاً بالقرن الإفريقي، فقد حولت الرسالة إلى الصومال، وحينما ذهبت وعشت في الصومال، ومسحت مع الأخ الفاضل مبارك أحمد حمد كل الصومال بالعربة التي دخلناها عبر الحدود إلى جيبوتي، أدركت أن النسيج السياسي والثقافي والاجتماعي لهذه المنطقة واحد، قد استطعت بفضل فدائية مبارك إنجاز المسح الميداني للدراسة في الصومال رغم توجس أمن نظام سياد بري، وقد تعاون معي شباب الحركة الإسلامية في هرجيسا وبربرا ومقديشو، وكذلك في جارسيا وسيولو في شمال شرق كينيا، بالإضافة إلى جيبوتي.

وقد استطعت كتابة رسالة الدكتوراه في ستة أشهر، ثم بدأت في العمل الذي جئت من أجله وهو كتابة كتاب عن المشروع التنصيري في السودان، وكتبته في البداية باللغة الإنجليزية (The Sudan Christian Design)، ثم ترجمته للعربية، وقد صادفت نسخته الإنجليزية رواجاً، وتم استعراضه في قرابة خمس أو ست دوريات غربية، ووصف الكاتب الإسلامي المرحوم د. محمد حميد الله بأنه أحسن ما قرأ في حياته في هذا الباب.

ثم كتبت كتاب (الحركة الإسلامية في السودان تاريخها ومغزى خطابها السياسي)، ثم عدت للسودان في عام ١٩٨٩ في ظرف ما بعد ثورة المصاحف، وما بعد مذكرة قيادة الجيش (فبراير ١٩٨٩م) والتي عنت انقلاباً عسكرياً، وأذكر أنني سمعت بالمذكرة وأنا في لندن، وجاء حينها د. علي الحاج ونزل في منزل النور زروق، فرفعت السماعة وقلت له ما وقع انقلاب عسكري؟ ثم تم فض ما كان يعرف بحكومة الوفاق.

محاولات تأسيس كيان إسلامي

محاولات تأسيس كيان إسلامي في ظروف ما بعد سقوط الخلافة كان لها أن تمر بمخاض عنيف وصعب وطويل، فهناك الإرث الاستعماري، والعامة مجبولة على ما قامت عليه، وكذلك فإن الألف والعادة والكسل يصور أن الأصل في نظام الدول الإرث الاستعماري. أو ثقافة الاستعمار، لذا فلا عجب أن طال مخاض حركات التجديد، ولنأخذ مثلاً هدف الدولة القطرية أو القومية الحديثة هو تحقيق الرفاهية أو الوفرة، أو بمعنى آخر مجتمع الاستهلاك، فهل يا ترى يصلح هذا الهدف هدفاً للكيان الإسلامي؟.

وظيفة الكيان الإسلامي إخراج الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام، وأساس ذلك معرفة الله وتوحيده وإخلاص العبودية له، ولكن أين تقع الرفاهية والوفرة في جدول أعمال الكيان الإسلامي، إنها ثمرة من ثمار الحضارة تأتي بعد المعاناة والتضحية والتقوى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ الأعراف٩٦. فالدنيا جنة الكافر، ولكن حاشا أن تكون كذلك للمسلم، واختلاط المفاهيم وغياب المرتكزات يؤدي أحياناً إلى الفوضى والخلط وربما اليأس والإحباط.

لو أن مجتمع الحضارة الإيمانية يسعى لذات أهداف الدول الكافرة، لما أصبح هناك معنى للجنة والنار والشهادة والجهاد، فمثلاً من وظائفِ الكيان الإسلامي إعداد العدة للجهاد، وتسهيل بلوغ الجنة عبر الشهادة، والشهادة معناها اختيار الموت ومحبة ملاقاة الله عز وجل في سبيل تقويض الأوضاع المعاكسة لشرع الله، وهكذا تحدث كتاب الله، وهكذا تحدث أنبياء الله، وهكذا تكلم سلف هذه الأمة، وهذا هو مغزى الثقافة الإسلامية.

الكيان الإسلامي كيان متجه إلى الله، كيان عابد، وهذه العبودية قد تقود إلى الوفرة، وقد لا تقود، ولكن حتماً تعين على بلوغ الجنة بنيل رضاء الله سبحانه وتعالى. لقد كان دعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يعيش مسكيناً، وعاش مسكيناً، وكذلك صفوة الصحابة عاشوا في زهد وتبتل، ولكن جاءت أوقات فاض فيها المال حتى أخذ الكيان الإسلامي، ولقد لقب بالعالم الإسلامي، فهو عالم وليس دولة إمبراطورية، وتحدثنا الحوليات التاريخية ابتداءً من القرن الحادي عشر كان الشعور السائد بأن الكون كله في طريقة ليسلم ويدخل في العالم الإسلامي، ولكن جاءت فكرة الوفرة الاستهلاك الترف لتفعل فعلها وسط العالم الإسلامي

وتغير حركة التاريخ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ الإسراء١٦ فكانت الحروب الصليبية، ثم سقوط الأندلس. وغفوة للعالم الإسلامي، وهذا تاريخ طويل.

والدول لا تبنى بدون تضحية ومبادرة، وإلا لماذا رفض النبي (صلى الله عليه وسلم) عرض قريش بأن تجمع له المال وتضع في يده السلطة والجاه، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يردد: لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته. كيف نفهم معنى الشهادة ومغزى الهجرة والمعاناة والفرار إلى أهل الله في إطار أهداف كالرفاهية؟ ماذا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وبني هاشم في شعب مكة في أشد أنواع الحصار حتى أكلوا الجلود؟ وماذا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف وهو يردد: اللهم إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي. ولكن هذا لا يعني عدم الأخذ بأسباب القوة والمنعة والتنمية.

هل المعاناة في ظروف الحصار الاقتصادي والسياسي دليل على فشل حركة دولة الكيان الإسلامي؟ الذين يراهنون على ذلك لا يفهمون مغزى الثقافة الإسلامية. ولا منطق حركات التحديات ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ البروج٨. بلى إن المعاناة هي التي تولد الاستجابة وتولد الكيان لفاعل. وأيما هجرة إلى الله تتطلب استعدادات وخبرات خاصة والفرار إلى الله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الذاريات٥٠. تركوا الخمر والميسر، وعرفوا الله، وعرفوا أخوة الإيمان عوضاً عن نعيم الدنيا. ودعك من شعارات معارضة السوء وابتلاءات الخوف والجوع ونقص الثمرات. إذ الابتلاءات تقوي حركة الكيان الإسلامي ولا تقوضه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ البقرة١٥٥.

ليس من الفشل أن تحيط الأزمات بالكيان الإسلامي، ولكن الفشل في الاستسلام واليأس والهزيمة النفسية والفكرية، والصحوات إنما تأتي نتيجة للابتلاءات والتجارب المريرة. الصحوات الروحية لها ثمن، ولذلك كان من شأنها الشهادة والتضحية بالمال والنفس. والذين يراهنون على سقوط الكيان الإسلامي للإرهاق الاقتصادي والمعيشي لم يتذوقوا الإيمان، ولم يعرفوا برد اليقين، ولا فهموا منطق الثقافة الإسلامية، وإلا لماذا يصمد المسلمون في السجون، فإن صمدوا في السجون طلبوا الشهادة في عز التمكين.

هل يصعب عليهم أن يصبروا على ثمرة النصر إذا كانت المعارضة لا تزال تقيس قيام وسقوط الثقافة الإسلامية بأسس ومعايير الغرب؟ فعلى دولة الإسلام أن تبشر بطول العمر وطول السلامة، لأن المعركة معركة مفاهيم وقضايا وقيم. في عصر الصحوة الإسلامية والعولمة أصبحت المجابهة معركة كونية وليس ثمة مدد سوى مدد الروح والطاقة الإيمانية. وإن كانت الحسابات حسابات مادية لما صمدت الصحوة دقائق معدودة أمام ضربات الصهيونية الصليبية.

والا ما الذي جاء بي من مدينة لستر الجميلة، طابت الحياة، وطابت الرفاهية. وكانت المؤسسة التي كنت أعمل فيها تريد أن تكسبني، وفي لستر تعمقت صلاتي بإخوة من السعودية والكويت وديار العرب، كنت كلما غبت عنهم هرعوا إليّ إما في مكتبي أو منزلي. وكانت سياراتهم في خدمتي أحياناً بدون طلب. اختلط أطفالهم بأطفالي، ونساؤهم بزوجتي. وصادقوا رجال المؤسسة التي أعمل فيها، وحينما جاءت وقائع أمطار وفيضانات عام ١٩٨٨ تجمعوا لإغاثة ونجدة السودان.

وجاءت مقدمات حرب الخليج، وشهدتها ببصري وسمعي وأعصابي في بريطانيا. وقبل أن تصل إلى خاتمتها النهائية كنت قد انتقلت إلى السودان نهائياً مودعاً بريطانيا ومباهجها. أقرأ كل كلمة في الصحف البريطانية والدوريات ثم التلفاز، ولا زلت أذكر يوم طلعت علينا صحيفة (Observer) وبالبنط العريض عن حريق في مجمع صناعة الصواريخ العراقي. ثم اغتيال السلطات العراقية للجاسوس والصحفي العامل في الـ(Observer) (بازوفت). ثم إعدام السلطات العراقية له رغم مناشدة الغرب وضغط حكومة تاتشر والصحافة الغربية. ثم حملة شعواء على نظام صدام، ثم اتهامات العراق للكويت ودول خليجية بإغراقها لسوق النفط بالبترول للإضرار باقتصاد العراق، وتصريح صدام: (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق) ثم إغراء أمريكا لصدام بغزو الكويت كما اتضح في مقابلة السفيرة الأمريكية بريل جلاسي التي ذكرت لصدام بأن الولايات المتحدة ليست معنية أبداً بقضايا الحدود بين الكويت والعراق.

كان من الواضح أن إسرائيل وأمريكا وراء تحريك الكويت للإضرار بالعراق، وإغراء العراق بالتهام الكويت حتى يتسنى للغرب فرصة تدمير العراق وتدمير نهضته الصناعية. حتى لا يمثل تهديداً لأمن إسرائيل، وحتى لا يفكر مرة أخرى في تجاوز الخط الأحمر من النهضة الصناعية المفروضة على دول المنظومة الإسلامية. ربما وقعت القيادة في أخطاء هنا وهناك.

فأنا مثلاً لم يحدث أن كانت لي عواطف مع حزب البعث العراقي، وجل أصدقائي في بريطانيا كانوا من المعارضة العراقية، من أمثال أحمد الراوي الذي طالما دخلت في منزله، وطالما زارني مكتباً ونزلاً، وطالما تناقشنا في الهاتف، وحينما حدثت المواجهة طلبت منه أن يجمِّدوا خلافهم مع النظام، وكاد الهاتف أن يقع من يد الصديق أحمد الراوي.

الذي يكتب هذا تتلمذ وتثقف على كتابات الشهيد محمد باقر الصدر، وذهب معزياً وشاجباً اغتيال آية الله الحكيم، الذي زارنا في مؤتمر الجبهة الإسلامية بالخرطوم. والذي يكتب هذا كان في صف إيران حينما تعرضت للغزو العراقي في ١٩٧٩ وبإيحاء من دول الخليج والغرب، ولكن حينما أطلت نذر حرب الخليج لم يكن هناك ثمة خيار غير الوقوف مع العراق، أيّ موقف آخر كان معناه أنه ليست لنا عقول.

لقد كان هذا الموقف مكلفاً بالنسبة لي ولصداقاتي. فصداقاتي: معارضة عراقية. حركات إسلامية كويتية وخليجية، ووجدت نفسي في الخندق المضاد. أما الأصدقاء الكويتيون والذين وجدوا أنفسهم فجأة من نعيم إلى لاجئين كان من الصعب مناقشتهم، فهم في أزمة ومحنة نفسية واجتماعية، وأيّ مناقشة كانوا يفهمونها على أنها عدم وفاء وتنكر للعشرة وشماتة، لقد طغى مشروع الكويت عندهم على مغزى ومضمون المشروع الإسلامي، وأصبح الغرب هو السيد وهو المخلِّص، كان القبول بالروشتة الخليجية يعني أن نقدم استقالتنا من إسلامنا ووراثات قلبنا وضميرنا، ونقف مع الغرب في مسلسل تدمير العراق، ثم ارتهان الخليج والكويت، ومنذ حرب الخليج انقطع الاتصال بأعز الأصدقاء في الكويت، لا مراسلة، ولا مكاتبة. وقد قرأ معظمهم ورقتي التي كتبتها في مؤتمر المؤتمر الشعبي العربي والإسلامي والتي نشرتها جريدة القدس في لندن، وقد حدثني الصديق د. إبراهيم كدام أنهم قد تحلقوا في مسجد لستر وقرأوا المقالة حرفاً حرفاً، وما أدري ما كان شعورهم، ولعل الزمان لو استدار مرة أخرى لما تغير موقفي من حرب الخليج، ولقد عشت وقتها أزمة نفسية صعبة.

وحينما صدر بيان الندوة العالمية للشباب الإسلامي لم أتمالك إلا أن كتبت لأمين الندوة خطاباً شخصياً - منتقداً ومعاتباً- ولقد مثلت الحرب بالنسبة لي صدمة نفسية رهيبة لم أستطع تجاوزها، ولقد كتب لي أخ صديق يعمل رئيساً لتحرير جريدة خليجية واسعة الانتشار خطابين يرجوني تحرير عمود في جريدته، ففشلت حتى في أن أرد على

أيٍّ من خطابيه دعك من الكتابة، وحينما جاء إلى السودان وزارني في مكتبي وعدته بأنني سأكتب ولكني لم أقو على ذلك، نسبة لموقف الجريدة من الحرب. ومع ذلك يظل شعب الكويت تظل الكويت حبيبة للنفس، لأن الكويت هي أكثر الدول دعماً للعمل الخيري والعمل الإسلامي، ومن لا يحب الكويت وأيادي الكويت وقوة الكويت للجميع.

حرب الخليج كانت الحرب الفاضحة والكاشفة، والتي جعلت الشخص يتكامل وعيه بمخططات السياسة الدولية، والذين يراهنون على الغرب دفعوا الثمن وسيدفعونه أضعافاً ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ آل عمران١١٨.

لقد كانت محطة حرب الخليج محطة صعبة، كاد الإنسان أن يصاب فيها بالجنون، ولم يكن ضحاياها الكويتيون وإنما كانت ضحيتها الأولى أعصابنا ورجولتنا ومغزى وجودنا. لقد كان امتحان الحرب امتحاناً صعباً، أما أصدقاؤنا فإننا لم نغير ولم نبدل، ولهم في النفس الحب والمودة، وعما قريب سيصبح رأيهم من جنس رأينا. لقد كانت حرب الخليج كميناً أعده الغرب لتدمير العراق والكويت والتهام فوائض عوائد النفط، ولعلهم نجحوا في ذلك.

ماذا قرأت؟ وماذا أقرأ الآن؟

كثير من الشباب يسألني: ماذا نقرأ؟ وأعود لمراحل التكوين فيما كنا طلاباً في الجامعة. كنا مولعين بتفسير ابن كثير وتفسير الظلال، وأحياناً تفسير الشوكاني (فتح القدير). كما كانت مكتباتنا لا تخلو من كتب سيد قطب، وعلى الأخص (معالم في الطريق). وشقيقه محمد قطب، ومحمد الغزالي، ومحمد باقر الصدر، ومحمد حميد الله. ومحمد أبو زهرة، بالإضافة إلى رسالة الحارث المحاسبي في آداب النفس، والرسالة القشيرية في التصوف، ورسائل الشهيد حسن البنا، ودراسة ابن تيمية (العقيدة الواسطية)، ومنهاج السنة، وخطب ودراسات الخميني وقادة الشيعة، كما قرأنا للمنفلوطي، والعقاد. وطه حسين، ومحمد حسنين هيكل، كما مررنا على موافقات الشاطبي، وملل ونحل ابن حزم. ومقدمة ابن خلدون، كما قرأنا تاريخ الشعوب الإسلامية للمستشرق الألماني بروكلمان. كما قرأنا لماركس، وماوتسي تونج... الخ، بالإضافة إلى السيرة النبوية، وسيد سابق، وابن رشد (بداية المتجهد).

أما الآن فقد تغيرت اهتماماتي وإن كنت أعتقد أن لكل مرحلة زادها ووقودها. وأعتقد كل داعية لابد له من ورد يوميّ مثل قراءة جزء من القرآن، ثم أذكار ما بعد كل صلاة - راجع (الوابل الصيب من الكلم الطيب) أو (الكلم الطيب) لابن تيمية - ثم عدد مقدور من الصلاة على النبي والتهليل والتكبير والاستغفار. أما الآن فأركز على الدراسات المعنية بأمر الشعوب الإسلامية، وقد أكسبتني هذه الدراسات مئات الأصناف، فحينما نشرت دراستي (الأرومو: دراسة تحليلية) تعرفت إلى المئات من شباب الأرومو الذين منحوني شهادة تقديرية، واحتفلوا بي في الرياض بالسعودية، وفي لندن... الخ.

وفي رمضان المنصرم هذا قرأت دراسة في تاريخ العالم الإسلامي عن السودان والخرطوم كتبها إيطالي وفرنسي عن السودان في بدايات القرن التاسع عشر. وعثر عليها المؤرخ البريطاني ريتشارد هل وترجمها للإنجليزية، ثم ترجمها باحثان سودانيان للعربية. وقرأت دراسة عن قبيلة البرتي، وأخرى عن القرن الإفريقي، وأخرى في تاريخ إفريقيا، وأخرى عن الإسلام وسط قبيلة الدوالا في غرب إفريقيا، وكتاب المستشرق الفرنسي فرانسو بورييه (الإسلام السياسي)، وقد زارني هذا المستشرق وأرسل لي كتابه لمعرفة رأيي، وتصلني شهرياً عشرات الكتب كهدايا من المؤلفين والناشرين والسفارات. لذا

فقد أصبحت معظم قراءتي متخصصة، خصوصاً أنني أشرف على عدد من طلاب الدراسات العليا في جامعة إفريقيا، مما يصب في اتجاه التخصص. ولكنني كذلك أشتري الكتب وبمئات الدولارات خصماً على نثريات الضيافة والمؤتمرات أثناء الأسفار والمهام الخارجية. وأقرأ في المتوسط أربع ساعات يومياً، ولذلك لا أكاد أجد مجالاً لقراءة الصحف اليومية أو حتى النظر في التلفزيون أو سماع الإذاعة.

وعالم الكتب عالم فيه من المتاهات بقدر ما فيه من المباهج، واختيار الكتاب يحتاج لخبرة. وكما يقول الصوفية: الطريق هابر داير له خابر، وليست ثمة دراسة جادة إلا ولها هدف. والكتاب مثل الصيادين يهدفون لاصطياد عقول القراء وتطويع مسالكهم الفكرية والنفسية. والتقدم العلمي ثمرة من ثمار حركة البحث، والبحث هو إمعان النظر في الحقائق بعد تجميعها وتوثيقها وترتيبها بقصد تحليلها للوصول للنتائج، وحينما يصبح البحث العلمي عرضة للأهواء والأطماع والمصالح تضيع وتنتكس حركة المعرفة، ولنضرب مثلاً بدراسة وقعت في يدي مؤخراً، والدراسة أعدتها دائرة من دوائر لجان الحزب الجمهوري الأمريكي للبحث، صدرت الدراسة بتاريخ ١ فبراير ١٩٩٣ تحت عنوان الإسلامية الدولية الجديدة. وتقع في ٩٣ صفحة.

وتكشف الدراسة عن الدور الخطير الذي تقوم به دوائر البحث في تضليل الأجهزة السياسية والقيادات التنفيذية، وذلك بتمليك وتغذية صاحب القرار الأمريكي بالمعلومات الخاطئة بغية شل ذاكرته وتسخير ملكاته الفكرية والنفسية في سبيل اتخاذ القرار السياسي والاقتصادي الذي يوائم مصالح وأغراض الدوائر التي تقف خلف الدراسة. هذه الدراسة عبارة عن سلسلة من الأكاذيب والحقائق الملفقة، فهي تتحدث عن:

❖السودان أصبح مركز حركة الإرهاب العالمي، وكل الحركات الإرهابية في العالم لها مراكز في السودان.

❖عباس مدني زار السودان والتقى بالترابي وخططوا لقيام دولة إسلامية، (عباس مدني لم يحدث له أن زار السودان والوقت الذي حددته لذلك اللقاء أي في أغسطس ٨٩ كان الترابي بالسجن!).

❖الترابي عن طريق إيران موّل جبهة الإنقاذ الإسلامي بالجزائر بمبلغ سبعة وأربعين مليون دولار بتحويلات بنكية (بنك فيصل)، عشرات المعسكرات (سمتها الدراسة) للاغتيالات والتفجيرات وخطف الطائرات.

❖معسكرات لتدريب عشرات الآلاف لتخريب مصر وليبيا وإفريقيا، وتوضح الدراسة أسماء المعسكرات ومواقعها، وكل ذلك من نسيج الخيال والإفك.

وحينما تقرأ الدراسة تصاب بالدوار، إذ السودان بالنسبة للأمريكي كجواتيمالا بالنسبة للسوداني، وإذا وقعت في يدي دراسة عن أرجواي وجواتيمالا فيها معلومات كهذه لم أصدق؟ ولكن ما يزال الشك يخامرني في أنه ربما أن مثل هذه التقارير منحولة. بمعنى أن أجهزة الاستخبارات أحياناً تأفك هذا الإفك كي تجعله بالونات اختبار لمعرفة ردود الفعل، ولكني كذلك لا أستبعد صدوره من الحزب الجمهوري، إذ ما فيه من أكاذيب وأباطيل وضلالات رأيت لها أشباهاً تنشرها الصحافة الغربية والمصرية والخليجية. هل يا ترى وزارة الخارجية والأجهزة الأمنية ترصد مثل هذه الأشياء؟ وما رأي السفارة الأمريكية بالخرطوم؟ وأنا على استعداد لتزويدها بالدراسة.

مما تعلمته بالخبرة والتجربة أنه ما من مشروع خير تقف في سبيله العوائق المادية. فحينما نجحت الثورة الإثيوبية كنت مشغولاً بإعداد هدية لمسلمي إثيوبيا المنسيين. ووجدت هذه الهدية في (دراسة مبادئ الإسلام) للمودودي مترجمة للغة الأرومو، فقلت في نفسي: خير هدية أن تطبع عشر آلاف نسخة من هذه الدراسة لمتعلمي الأرومو من المسلمين، وكان ذلك يتطلب مبلغاً زهيداً (مليون جنيه) ولكن من أين؟

وذهبت إلى حفل زواج أحد الشباب بمسجد الجامعة، وهناك وجدت بعض مديري بنوك وشركات تأمين، واستطعت تأمين مبلغ لا يتجاوز المائتي ألف جنيه، وبينما أنا أراود في أحدهم إذ سلم عليّ الصديق (..........) قائلاً: حسن داير شنو من الزول؟ قلت: فقط نصف مليون جنيه، قال لي: لأيّ موضوع؟ قلت: نشر كتاب هدية لمسلمي إثيوبيا. قال: إذن أنا سأدفع المبلغ. وبعد أيام دخل عليّ الشهيد عبيد ختم وقال هذا الظرف مرسل لك من (........)، ووجدت بداخله شيكاً بالمبلغ. وقد نسيت أن أكتب له رسالة شكر أرجو أن يتقبل الله منا ومنه. وبالفعل طبع الكتاب وأرسل إلى إثيوبيا وكان له وقع حسن، وقد جاءني مندوب منظمة الدعوة الإسلامية من هناك يرجو تدبير أمر عشر آلاف نسخة أخرى، هل من (........) آخر؟.

تعلمت كذلك أن الفرج مع الضيق، وأن مع العسر يسراً ولن يغلب عسر يسرين، وحينما تزوجت لم أكن أملك عربة كغيري من عباد الله، وكنت كثيراً ما أضرب في الأرض لإقامة

الندوات وحضور الاجتماعات. وكان حينما تتكاثر الالتزامات أسعى لأصحاب العربات لتسهيل الانتقال، وكان من بينهم الصديق علي الخضر كمبال. وذات يوم هاتفته راجياً أن يصلني بعربته. فقال لي: حسن أنا قررت أن أشتري لك عربة شبه جديدة وبالإقساط المريحة. وحسبت ذلك نوعاً من (الونسة)، ولكن في المساء حينما أتيت المنزل قالوا لي: جاء أحد الأشخاص بهذه العربة وقال إنها لحسن. نظرت فإذا هي عربة كورولا أعتقد موديل ٨٠. وكان العام ١٩٨٢م، وتعلمت وزوجتي القيادة على هذه السيارة. وظلت معي حتى عام ١٩٨٦م. سافرت إلى إنجلترا وحينها بعتها بأموال كثيرة حولتها إلى دولارات جعلتني من أغنياء الطلاب في بريطانيا.

وكثيراً ما كنت أسافر داخل وخارج السودان وليس لي من المال سوى العناوين والرجاء في الله سبحانه وتعالى الذي يسخّر الأحوال والعباد.

وكلمة أخيرة للشباب، عليهم بالقراءة وتوسيع المعارف، والضرب في الأرض والسير فيها. والتعرف على الشعوب والأمم، وأخذ الخبرات والتجارب. وأكتفي بذلك.

وكلمة أخيرة هي الاعتذار عن الذاتية التي قد تكون طفحت ما بين السطور. ولكن الذكريات هي الكتابة عن تجربة الذات.

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يوسف٥٣.

رقم الإيداع
2006 /671

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة



المؤلف

الاسم: أ.د/ حسن مكي محمد أحمد

الميلاد : ١٩٥٠م

الدراسة الجامعية:

- بكالوريوس فلسفة وتاريخ - جامعة الخرطوم - ١٩٧٧م.
- دكتوراه معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية - جامعة الخرطوم - ١٩٨٩م.

الخبرات الأكاديمية والعملية:

- عميد مركز البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة إفريقيا العالمية منذ ١٩٩١م وحتى الآن .
- عميد الدراسات العليا بالإنابة بجامعة إفريقيا العالمية في الأعوام ١٩٩٧م - ٢٠٠٠م
- رئيس هيئة تحرير مجلة دراسات إفريقية.
- ساهم في إقامة وصياغة مناهج مركز الدراسات الإفريقية، مركز دراسات الكوارث واللاجئين.
- يتعاون مع جامعة الخرطوم كممتحن خارجي على مستوى الدكتوراه والماجستير في أقسام الدراسات الإفريقية، التاريخ، الدراسات الإسلامية، والترجمة. وكذلك مع قسم التاريخ بجامعة النيلين. وكلية العلوم السياسية بجامعة أم درمان الإسلامية.
- نال درجة الأستاذية من جامعة إفريقيا العالمية في الدراسات الإفريقية في العام ٢٠٠٠م.

المؤلفات:

- السياسات الثقافية في الصومال الكبير - المشروع التنصيري في السودان - الحركة الطلابية السودانية بين الأمس واليوم - تطور أوضاع المسلمين الإرتريين - السيد أحمد بن إدريس الفاسي "منهجه في الدعوة وفكره السياسي" - الثقافة السنارية "المغزى والمضمون" - أوضاع الثقافة الإسلامية في جنوب السودان - حركة الإخوان المسلمين في السودان "١٩٤٤ - ١٩٦٩" - الحركة الإسلامية في السودان تطورها التاريخي وخطابها السياسي "١٩٦٩-١٩٨٦" - حركة البعث الإسلامي في إيران - Sudan : The Christian Design - إفريقيا أشكالات العمران والتحرر من الجوع والخوف.
- بالإضافة إلى عشرات المقالات في الدوريات المختلفة والصحف داخل وخارج السودان. كما شارك في العديد من المؤتمرات الداخلية والخارجية.
- نال جائزة الإمام عبد الحميد بن باديس للثقافة والعلوم لسنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م من مركز دراسات المستقبل الإسلامي بلندن، والمعهد العالي للفكر الإسلامي بواشنطون.

ردمك: ISBN: 99942-59-25-3

شركة مطابع السودان للعملة المحدودة